حنطة فى شَعْر » .

خطايا جمع خطيئة بالهمز . وقال الفّراء : خطايا جمع خطيّة بلا همز ، كما تقول : هديّة وهدايا[١] .

وسنزيد المحسنين . « قال ابن عبّاس : وسنزيد المحسنين . من كان منكم محسناً زيد فى إحسانه . ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته »[٢] .

فبدّل: فغيّر [٣] « وحاصل ما ذكره المفسرون وما دلّ عليه السّياق أنّهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا بأن يدخلوا سجّداً فدخلوا يزحفون على أستاههم مِنْ قِبَلِ أستاههم رافعى رءوسهم . وأمروا أن يقولوا حطّة أى احطط عنّا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا فقالوا حنطة فى شعيرة . وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته »[٤]

الرّجز : العذاب وتكسر راؤه وتضمّ[٥] .

بما كانوا : ما مصدريّة . التّقدير : بكونهم[٦] .

بما كانوا يفسقون : بما كانوا يتركون طاعة الله عزّ وجلّ فيخرجون عنها إلى معصيته وخلاف أمره[٧] .

فى سلسلة النّعم الّتى امتن الله تعالى بها على بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السّلام وبعد وفاته ، والّتى ينبّه عليها بنو إسرائيل المعاصرون للمصطفى ﷺ بقصد أن يرعوها حقّ رعايتها لأنّها شملتهم كما شملت آباءهم ، تبدأ أولى الآيتين الكريمتين على غرار كلّ آية سابقة تذكر إحدى تلك النّعم وذلك بالقول : « وإذ » والمعنى واذكروا إذ قلنا لآبائكم على عهد يوشع بن نون عليه السّلام الّذى خلف موسى عليه السّلام بعد أن رفعنا عنكم عقوبة التّيه الّتى كانت بسبب جبنكم ونكوصكم على أعقابكم وارتدادكم على أدباركم عن

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٣ وانظر الطّبرىّ ١/٢٤٠ والبحر المحيط ١/٢١٧ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٢٤٠ (٣) تفسير الطّبرىّ ١/٢٤٠

(٤) تفسير ابن كثير ١/٩٩

(٥) البحر المحيط ١/٢١٨ وانظر تفسير ابن كثير ١/٩٩ وتفسير الطّبرىّ ١/٢٤٢

(٦) البحر المحيط ٢/٢٢٥ (٧) تفسير الطبرى ١/٢٤٣

دخول باب المدينة المقدّسة على الجبّارين الّذين عاثوا فى الأرض فساداً على الرّغم من وعد رسول الله تعالى موسى عليه السّلام بوحيٍ من الله تعالى بأنّكم ستغلبونهم بمجرّد دخولكم عليهم باب المدينة ، اذكروا إذ قلنا لآبائكم ادخلوا هذه القرية القريبة منكم والتى ترونها رأى العين وهى بيت المقدس . لقد رفع الله سبحانه وتعالى التّيه الّذى ضربه الله تعالى على قوم موسى عليه السّلام الّذين لم يستطيعوا بعد التخلّص بالكلّيّة من روح العبوديّة الّتى لازمتهم بقهرها طوال بقائهم فى مصر على عهد فرعون وآله ، لذا جبنوا على دخول مدينة الجبّارين ، وها هى ذى الآية الكريمة تبيّن أنّ ربّ العزّة يخاطب الجيل الجديد الّذى ولد فى جو الحرّيّة المنعش وترعرع فيه ، وذلك فى أثناء الأربعين سنةً الّتى قضاها القوم فى التّيه ، ويأمره وقد ابتعد عن منطقة التّيه واتّجه بقيادة يوشع بن نون نحو الأرض المقدّسة الّتى وقع عليها بصره ورآها رأى العين بأنّ عليهم أن يدخلوا هذه القرية ، بمعنى مدينة بيت المقدس . وتبنى الآية الكريمة على الدّخول الأكل منها حيث شاءوا رغدا . ويلاحظ هنا أنّ القول « فكلوا » يبدأ بالفاء الّتى تعنى أنّ ما قبلها سببٌ لما بعدها وأنّ ما بعدها مترتب على ما قبلها ، ممّا يُفْهم معه أنّ المهمّ فى الأمرين هو الأكل الرّغد وليس الدّخول ، وكأن الدخول أمرٌ مفروغٌ منه ، وأنّه ليس سوى سببٍ ضرورىّ فى طريق الأكل من تلك القرية حيث شاء القوم رغداً . بينما يلاحظ فى سورة الأعراف مجىء الواو بدل الفاء وذلك فى قوله تعالى[1] : ﴿ وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطّة وادخلوا الباب سجّداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين ﴾ وينبغى أن نتبيّن أنّ الأكل فى آية سورة البقرة مبنىٌّ على الدّخول ومترتّب عليه ، وقد أشرنا إلى كون الدّخول أمراً ليس بالكثير الصعوبة وكون الأكل هو أهمّ الأمرين ، أمّا فى آية سورة الأعراف فقد عطف الأكل على السّكن . ومعروفٌ أن السّكن إنّما يكون بعد الدّخول . ومعروفٌ كذلك أنّ من متعلّقات السّكن الأكل . وبذلك يتبيّن أنّ آية سورة الأعراف تتجاوز مرحلة الدّخول إلى السّكن ، وهى أهمّ ما فى الأمرين ، وتبنى على السّكن الأكل الّذى يعطف على السّكن بحرف العطف الواو الدّالّ على مطلق الجمع . وننتهى من كلّ ذلك

---

(١) سورة الأعراف ١٦١

إلى كون دخول المدينة المقدّسة أبسط الأمور الثّلاثة الدّخول والسكن والأكل .

والحقيقة أنّنا بصدد درسٍ من القرآن الكريم عظيم ، ينبغى أن يعيه المسلمون وأن يحذقوه فى كلّ زمانٍ ومكانٍ . ويستنتج هذا الدّرس القرآنىّ العظيم من دخول المدينة المقدّسة الّذى لم يكن ممكناً فى حقّ بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السّلام مع وعده عليه السّلام لهم بذلك ، وبين دخول المدينة المقدّسة الّذى أصبح ممكناً فى حقّ بنى إسرائيل على عهد يوشع بن نون عليه السّلام بعد انقضاء فترة التّيه الّتى استمرت أربعين سنةً اختفى فى أثنائها جيل أنهكه طغيان فرعون وآله ، وحلّ محلّه جيل آخر تنفّس الحرّيّة منذ ولادته وجرت فى عروقه دماءٌ جديدة . وإذا كان مرور الزّمن فى صالح بنى إسرائيل فإنّه لم يكن فى صالح الجبّارين . وما الّذى يأبه له الطّغاة والجبّارون سوى التّرف والبذخ وعصيان الله تعالى ؟ حقّاً إنّ الجبّارين الآن هم الجبّارون على عهد موسى عليه السّلام . ولكن لا ننسى أنّ الزّمن كفيلٌ بتمكين العلل والأمراض من الطّغاة المرضى بطبعهم أساساً . فإذا تمكّن الدّاء من الطّغاة واستبدّ بهم المرض ، ومن مظاهر ذلك اللّجوء إلى الأشكال الجذّابة ، والمظاهر الخلاّبة ، لا يستطيعون أن يتحمّلوا صدمةً حقيقيةً واحدة ، إذْ سُرْعان ما تتهاوى الأصنام ، وتتكسّر التّماثيل ، وينكشف الزّيف ، ويذهب الزّبد جفاءً ، ويظهر القوم على حقيقتهم إذ لم يكونوا سوى خُشُبٍ مسنّدة . إنّ هذا ما حصل للطّغاة الجبّارين . وهذا ما يحصل للطّغاة الجبّارين فى كلّ زمانٍ ومكان . إنّ على المسلمين أن يحذِقوا هذا الدّرس القرآنىّ جيّداً وأن يعلموا ألاّ عاصم لهم من الله تعالى إلاّ إليه ، وأن يفطنوا إلى أنّ فترةً كالفترة الّتى قضاها بنو إسرائيل فى التّيه كفيلةٌ لهم بإذن الله تعالى كى يعيدوا تنظيم صفوفهم ، ويعملوا على رأب صدعهم ، ولمّ شملهم ، وتوحيد كلمتهم ، وإعداد العدّة الّتى يستطيعون كى يرهبوا عدوّ الله وعدوّهم وكى يستعيدوا القدس وفلسطين وسائر المقدسات الإسلاميّة . وإنّ طريق المُسلمين الوحيد للوصول إلى ما يريدون من الحياة الطيّبة فى الأولى والآخرة ، والعزّة الّتى أرادها الله تعالى لهم أن يعودوا إلى بارئهم مستمسكين بتطبيق تعاليم الكتاب العزيز وسنة المصطفى ﷺ . إنّ المسلمين بقدر تباطؤهم عن العودة إلى الله تعالى يتباطأ عنهم النّصر ويحالفهم الذّلّ والهوان . وبقدر

سرعة العودة إلى الله تعالى يقترب منهم بإذن الله تعالى النّصر المبين . وقد قال تعالى[١] : ﴿ ولَيَنْصُرَن الله من ينصره إنّ الله لقوىٌّ عزيز ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم ﴾ .

وتأمر الآية الكريمة أولئك الأقوام بأن يدخلوا هذه القرية ، كما تأمرهم أمر إباحة بأن يأكلو منها حيث شاءوا أكلاً كثيراً واسعاً هنيئاً مريئاً . وتعبيراً عن شكرهم لله تعالى الّذى آتاهم النّصر من عنده تأمرهم بأن يدخلوا باب المدينة المقدّسة منحنين ركوعاً لله تعالى مبالغين فى الانحناء إلى درجة السّجود أو قريبٍ منه ، فما النّصر إلاّ من عند الله تعالى ، وبالشّكر تدوم النّعم ، وإنّ التّواضع لله تعالى من علامات المتّقين ، وإنّ لنا نحن المسلمين فى المصطفى ﷺ لأسوةً حسنة ، فقد دخل عليه الصّلاة والسّلام مكّة فى أثناء فتحها وهو فى أجلّ هيئات التّواضع لله تعالى وأنبلها ، بحيث إنّ لحيته عليه الصّلاة والسّلام لانحنائه شكراً لله تعالى وتواضعاً لتمسّ مَوْرِك[٣] رحله . وتريد الآية الكريمة من بنى إسرائيل أن يقرنوا القول بالفعل ، فتأمرهم أن يسألوا الله تعالى ، وهم فى تلك الحال القريبين فيها من الله تعالى وهى حالة السّجود أن يستغفروا الله تعالى وأن يسألوه جلّ وعلا أن يحطّ عنهم خطاياهم ، وأن يغفر لهم ذنوبهم ، وأن يعفو عن زلاّتهم ، ويتجاوز عن سيّئاتهم . إنّهم باستغفارهم الله تعالى ، يعدهم جلّ وعلا بأن يغفر للمذنبين منهم ذنوبهم ، وأن يضاعف من حسنات المحسنين المستغفرين . فهل امتثل القوم لأوامر الله تعالى وهل نفّذوا تعاليمه جلّ وعلا ؟ الجواب فى الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ فبدّل الّذين ظلموا قولاً غير الّذى قيل لهم فأنزلنا على الّذين ظلموا رِجزاً من السّماء بما كانوا يفسقون ﴾ وإنه بالنّظر إلى الآية الكريمة المماثلة من سورة الأعراف[٤] فى قوله تعالى : ﴿ فبدّل الّذين ظلموا منهم قولاً غير الّذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء

---

(١) سورة الحج ٤٠

(٢) سورة محمّد ﷺ ٧

(٣) مَوْرك الرّجل ، بفتح الميم وسكون الواو : الموضع الّذى يجعل عليه الرّاكب رِجْله إذا ملّ من الرّكوب .

(٤) الآية ١٦٢

بما كانوا يظلمون ﴾ يتبيّن أنّ من القوم من امتثل لأوامر الله تعالى ، وأنّ منهم من لم يمتثل وأولئك هم الظّالمون الّذين بدّلوا قولاً غير الذى قيل لهم . فبدلاً من أن يقولوا حطّة ، بمعنى مسألتنا حطّة ، وبدلاً من أن يسألوا الله تعالى أن يحطّ عنهم ذنوبهم هم بالإضافة إلى كونهم لا يدخلون الباب سجّداً ولكن يدخلون على أستاهم زاحفين هم يقولون كما جاء فى الصّحيحين : حطّة حبّة فى شعرة ، وكما جاء فى غير الصّحيحين : حنطة فى شَعْر[1] .

لقد استحقّ القوم الظّالمون العذاب الأليم من الله سبحانه وتعالى الّذى أنزله عليهم من السّماء بسبب فسقهم وخروجهم من طاعة الله تعالى ودخولهم فى دائرة العصيان وطاعة الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء . ويلاحظ تكرار « الذين ظلموا » دليلاً على عظم ظلمهم . كما يلاحظ بشأن الآية السّابقة التّجانس بين « رغدا » و « سجداً » .

الآيــة رقــم (٦٠)

قال تعالى : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كلّ أناسٍ مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثَوْا فى الأرض مفسدين ﴾ .

ثمة وجه شبهٍ بين هذه الآية الكريمة من سورة البقرة المدنيّة وبين الآية الكريمة السّتّين بعد المائة من سورة الأعراف المكّية . قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كلُّ أناسٍ مشربهم ، وظلّلنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنّ والسّلوى كلوا من طيّبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ وتأمّل ما فطن إليه ابن كثير من فروق بين الآيتين الكريمتين . يقول رحمه الله تعالى[2] : « وهذه القصّة شبيهةٌ بالقصّة الّتى فى سورة

---

(١) انظر هنا مثلاً تفسير القرطبىّ ص ٣٥٠

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٠٠

الأعراف ولكن تلك مكيّة ، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأنّ الله تعالى يقصّ على رسوله ﷺ ما فعل بهم . وأمّا فى هذه السّورة وهى البقرة فهى مدنيّة فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم . وأخبر هناك بقوله : « ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾ ، وهو أوّل الانفجار ، وأخبر هٰهنا بما آل إليه الحال آخراً وهو الانفجار . فناسب ذكر الانفجار هٰهنا وذاك هناك والله أعلم » .

وهذا هو الإنعام التّاسع على بنى إسرائيل[١] وقال أكثر المفسّرين : كان هذا الاستسقاء فى التّيه[٢] .

السّين من استسقى سين السّؤال ، مثل : استعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك ، أى طلب وسأل السّقي لقومه[٣] والاستسقاء إنّما يكون عند عدم الماء وحبس القطر . وإذا كان كذلك فالحكم حينئذٍ إظهار العبوديّة والفقر والمسكنة والذلّة مع التّوبة النّصوح . وقد استسقى نبيّنا محمّد ﷺ فخرج إلى المصلّى متواضعاً متذلّلاً متخشّعاً مترسّلاً متضرّعاً . وحسبك به فكيف بنا ولا توبة معنا إلاّ العناد ومخالفة ربّ العباد ، فأنّى نُسْقَى ! لكن قد قال ﷺ فى حديث ابن عمر : و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ منعوا القطر من السّماء ولولا البهائم لم يمطروا[٤] .

العصا مؤنّث . والألف منقلبة عن واو ، قالوا : عصوان وعصَوْته أى ضربته بالعصا[٥] وهذه العصا هى المسئول عنها فى قوله : وما تلك بيمينك يا موسى . وكانت فيها خصائص تذكر فى موضعها[٦] .

والألف واللّام من الحجر إمّا للعهد والإشارة إلى حجرٍ معلوم . وإمّا للجنس ، أى اضرب الشّىء الّذى يقال له الحجر[٧] وفى الجلالين أنّه الحجر الّذى فرّ بثوبه . وقال ابن عطيّة : ولا خلاف أنّه كان حجراً منفصلاً مربّعاً تطّرد من كلّ جهة ثلاث عيونٍ إذا

---

(١) البحر المحيط ١/٢٢٦
(٢) البحر المحيط ١/٢٢٦
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٦
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٦
(٥) البحر المحيط ١/٢١٨
(٦) البحر المحيط ١/٢٢٦
(٧) الكشاف ١/٢١٧

ضربه موسى . وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفّت العيون[١] ويضيف القرطبى[٢] : « قلت : ما أوتى نبيّنا محمّد ﷺ من نبع الماء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم فى المعجزة ، فإنّا نشاهد الماء يتفجّر من الأحجار آناء اللّيل وآناء النّهار . ومعجزة نبيّنا عليه السّلام لم تكن لنبىّ قبله ﷺ يخرج الماء من بين لحم ودم . روى الأئمّة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنّا مع النّبىّ ﷺ فلم نجد ماءً فأُتي بتَوْر[٣] فأدخل يده فيه . فلقد رأيت الماء يتفجّر من بين أصابعه ويقول : حىّ على الطّهور . قال الأعمش : فحدّثنى سالم بن أبى الجعد قال : قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفاً وخمسمائة . لفظ النسائى » .

فانفجرت : الفاء متعلّقة بمحذوف ، أى فضرب فانفجرت[٤] فترك ذكر الخبر عن ضرب موسى الحجر إذ كان فيما ذكر دلالة على المراد منه[٥] وقد كان تعالى قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب . لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد فى وصولهم إلى المراد ، وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد[٦] والانفجار الانشقاق ومنه انشقّ الفجر ، وانفجر الماء انفجاراً انفتح ... والانبجاس أضيق من الانفجار لأنّه يكون انبجاساً ثمّ يصير انفجارا[٧] والانفجار انصداع شيءٍ من شيء ، ومنه انفجر ، والفجور ، وهو الانبعاث فى المعصية كالماء وهو مطاوع فعل فجره فانفجر . والمطاوعة أحد المعانى الّتى جاء لها انفعل [٨] .

اثنتا : تأنيث اثنين . وكلاهما له إعراب المثنّى وليس بمثنّى حقيقةً لأنّه لا يفرد[٩] وقرأ الجمهور عشرة بسكون الشّين[١٠] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٨ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٩

(٣) التّور بفتح التّاء المثنّاة : إناءٌ يُشْرب فيه مذكّر (القاموس) .

(٤) الكشّاف ٢١٨/١ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٣٥٧ والبحر المحيط ٢٢٧/١ وتفسير الطّبرىّ ٢٤٣/١

(٥) تفسير الطبرىّ ٢٤٣/١ (٦) تفسير القرطبى ص ٣٥٧

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٨ (٨) البحر المحيط ٢١٨/١

(٩) البحر المحيط ٢١٨/١ (١٠) البحر المحيط ٢٢٩/١

والعين لفظٌ مشترك بين منبع الماء وهو المقصود هنا ، وبين العضو الباصر ، والسّحابة تُقْبِلُ من ناحية القبلة ، والمطر يمطر خمساً أو ستّاً لا يقلع ، ومن له شرفٌ فى النّاس ، والثّقب فى المزادة ، والذّهب وغير ذلك[١] وعيناً منصوبٌ على التّمييز[٢] .

أناس : اسم جمعٍ لا واحد له من لفظه[٣] والمراد بكلّ أناسٍ كلّ سبط . يعنى أن لكلّ سبطٍ منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها[٤] والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب وهم ذرّية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليه السّلام . وكان لكلّ سبطٍ عينٌ من تلك العيون لا يتعدّاها[٥] .

والمشرب : موضع الشّرب وقيل المشروب[٦] ويرى أبو حيّان[٧] أنّ المشرب هنا مكان الشّرب وجهته الّتى يجرى منها الماء .

كلوا واشربوا : فى الكلام حذفٌ تقديره : وقلنا لهم كلوا المنّ والسّلوى واشربوا الماء المتفجّر من الحجر المنفصل[٨] .

والرّزق هنا هو المرزوق ، وهو الطّعام من المنّ والسّلوى والمشروب من ماء العيون . ولمّا كان مطعومهم ومشروبهم لا كلفة عليهم ولا تعب فى تحصيله حسنت إضافته إلى الله تعالى[٩] .

ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . عن ابن عبّاس : لا تسعوا فى الأرض . وأصل العثا شدّة الإفساد بل هو أشد الإفساد[١٠] « وعثا كرمى وسعى ورضي عُثِيّاً (بضمّ العين وكسر الثّاء) وعِثِيًّا (بكسر العين والثّاء) وعثيانا (بفتح الثاء) وعثا يعثو عُثوّاً (بضمّ العين والثّاء) أفسد[١١] والعيث :الإفساد . عاث يعيث[١٢] .

---

(١) انظر البحر المحيط ٢١٨/١
(٢) البحر المحيط ٢١٩/١
(٣) البحر المحيط ٢١٩/١
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٩
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٩
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٩
(٧) البحر المحيط ٢٢٩/١
(٨) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٩ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٤٤/١ .
(٩) البحر المحيط ٢٣٠/١
(١٠) تفسير الطّبرىّ ٢٤٤
(١١) القاموس المحيط « عثا » .
(١٢) القاموس المحيط « عيث » .

فى الأرض : الجمهور على أنّها أرض التّيه . ويجوز أن يريدها وغيرها ممّا قُدّر أن يُوصلوا إليها فينالها فسادهم[١] .

لقد استطردت الآيتان الكريمتان السّابقتان إلى أمر الله تعالى بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة وأن يدخلوا باب المدينة سجّداً وأن يسألوا الله تعالى المغفرة ، وقد دخلوا فى عهد يوشع بن نون عليه السّلام خليفة موسى بن عمران عليه السّلام وبدّل الّذين ظلموا قولاً غير الّذى قيل لهم . وإنّما كان الاستطراد لأنّه مكملٌ لأمر الله تعالى بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السّلام أن يدخلوا المدينة المقدّسة فجبُنوا ونكصوا على أعقابهم فحرّمها الله تعالى عليهم أربعين سنةً يتيهون فى الأرض . وفى أرض التّيه ظلّل الله تعالى عليهم الغمام وأنزل المنّ والسّلوى ، على نحو ما أشارت الآية الكريمة السابقة ، وها هو ذا السّياق يعود إلى تقرير حاجة بنى إسرائيل إلى الماء ، بعد أن قرّر حاجتهم إلى الطّعام . وإذا كانت حاجة القوم إلى الطّعام قد لُبّيتْ فى هيئة المنّ والسّلوى ، فإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن الكيفية الّتى لبّيت فيها حاجة القوم إلى الماء ، من أجل الشّراب فى المقام الأوّل . ومعروفٌ أنّ الشّراب قرين الطّعام وصنوه .

لقد اشتدت حاجة بنى إسرائيل فى التّيه إلى الماء ، فاستسقى موسى عليه السّلام لقومه ، واستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه . ويصحّ أن يكون الاستسقاء قد حدث مرّةً واحدة ، ويصحّ أن يكون قد حدث كلّ مرّةٍ احتاج فيها القوم للماء واشتد افتقادهم له . ويتّجه موسى عليه السّلام إلى بارئه جلّ وعلا الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء . والّذى يلفت الانتباه هو أنّ إجابة ربّ العزّة طلب موسى عليه السّلام أن يسقيهم جلّ وعلا الماء ، لم تتمّ عن طريق السّحاب أو الغمام الّذى كان يظلّ القوم ويمنع عنهم أذى الشّمس فى التّيه ، ممّا يصحّ أن يفهم معه أنّ الغمام لا ماء فيه . وإنّما كانت إجابة موسى عليه السّلام عن طريق استخدام العصا الّتى بيّن موسى عليه السّلام أنّه يتوكّأ عليها ويهشّ بها الشّجر كى يتساقط ورقها على غنمه ، وأنّ له فيها مآرب أخرى . إنّ ربّ

---

(١) البحر المحيط ١/٢٣١

العزّة يأمر موسى عليه السّلام أن يضرب بعصاه الحجر . ويصحّ أن يكون الضّرب متّجهاً إلى أىّ حجرٍ يصادفه موسى عليه السّلام أمامه ، خاصّةً إذا كان الاستسقاء لمرّة واحدة . ويصحّ أن يكون متّجهاً إلى حجر بعينه ، خاصّةً إذا كان الاستسقاء قد تكرّر . ونستطيع أن نتبيّن وراء ذلك طبيعة المعجزة . إنّ الماء لم ينزل من المُزْن كالمتّبع فى العادة ، ولكنّه جاء مرتبطاً بمعجزةٍ من نوع المعجزات المادّيّة الحسّيّة الّتى تتلاءم وطبيعة بنى إسرائيل الّتى تبحث عن طِلْبتها فى هذا النّوع من المعجزات المادّيّة والحسّيّة والّتى ترتبط فى العادة بموسى عليه السّلام . إنّ هذه المعجزة وأمثالها من المعجزات المادّيّة الحسّيّة تظلّ تدلّ على طفولة القوم الفكريّة وما يتعلّق بها من مستلزمات . فالطّفل مثلاً حُوّلٌ قُلّب . والطفل حينما يكون فيه عرامٌ[1] على جهة الخصوص ، تستهويه صوارم الأوامر ، وقوارع الزّواجر ، وغرائب الأحوال . وهى أحوال وأمور لازمت بنى إسرائيل . إنّهم مثلاً يسمعون كلام الله تعالى ممثّلاً فى التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام الّتى يصرّحون لموسى عليه السّلام بأنّهم سمعوها منه عليه السّلام ووعوها وسمعوا قوله ، ومع ذلك هم يعصون الله تعالى ويعصون أمر موسى عليه السّلام لهم بطاعة الله تعالى . وكفاء عصيانهم يخاطبهم ربّ العزّة فى مثل قوله تعالى[2] : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظُلّةٌ وظنّوا أنّه واقعٌ بهم . خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ﴾ إنّ بنى إسرائيل لا يأخذون تعاليم التوراة طوعاً ويأخذونها كرها حينما رفع الله سبحانه وتعالى فوقهم جبل الطّور من أصله حتّى أظلّهم وأصبح فوقهم كأنّه السّحابة التى تظلّهم وأيقنوا أنّه واقعٌ بهم .

وإنّ معجزة ضرب موسى عليه السّلام الحجر بعصاه من جنس المعجزات المادّية الحسّيّة التى تستهوى بنى إسرائيل وتلبّى حاجة عواطفهم .

ونستطيع أن نتبيّن من هٰذه المعجزة وراء ذلك ، بالمقارنة بين الماء النّابع من الحجر

---

(١) يقال : عرم الصّبىّ علينا ، كنصر وضرب وكرُم وعَلِم عُرامةً بالضّمّ فهو عارم ، إذا أشِر ومَرِح أو بَطِر وفَسَد . والعُرام الحِدّة والشّدّة . ومن الرّجل الشّراسة والأذى . انظر القاموس « عرم » .

(٢) سورة الأعراف ١٧١

والماء النازل من المزن ، مظهرا من مظاهر رأفة الله تعالى ببنى إسرائيل ، فالمعروف أن مياه النّبع من أصفى أنواع المياه وأنقاها ، بينما يحتاج ماء المزن ، وبخاصّةٍ إذا سال فى الأرض واحتمل زبداً رابياً ، إلى الكثير من المعالجة حتّى يصبح صالحاً للشّرب . لقد أعفى الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل من أدنى مجهود . لقد ضرب موسى عليه السّلام بأمر الله تعالى الحجر بعصاه واستجاب بأمر الله تعالى الحجر لضرب موسى عليه السّلام له ، فانبجست أوّل الأمر منه اثنتا عشرة عيناً ، فى كلّ جانبٍ من جوانبه الأربعة الّتى تقابل الأناس فيما يقال ثلاث عيون . وما لبثت مجارى العيون أن اتّسعت بعد ضيق ، فبعد أن كانت العيون منبجسة فى أوّل اندفاعها ، تحوّلت عيوناً منفجرةً لاتّساع مجاريها . وما دام فى كلّ جانبٍ من جوانب الحجر ثلاث عيون ، وما دام عدد أسباط بنى إسرائيل اثنى عشر سبطاً ، بعدد أولاد يعقوب عليه السّلام وهم الأسباط ، وكلّ سبطٍ بمثابة القبيلة من العرب ، فمن السّهل أن يعرف كلّ أناسٍ من الأسباط الاثني عشر مكان الشّرب وجهته الّتى يجرى منها الماء خاصّاً بهم مقصوراً عليهم ، من أجل راحتهم وسعادتهم . وذلك ما نصّت عليه الآية الكريمة .

أما وقد تحقّق لهم الطّعام فى المنّ والسّلوى ، وتيسّر لهم الماء الّذى يعتبر أعزّ مفقود وأهون موجود ، من أجل أغراضٍ كثيرة أهمّها الشّرب ، خاصةً مع الطّعام ، فقد أُمر بنو إسرائيل أن يأكلوا وأن يشربوا من رزق الله تعالى الّذى ساقه إليهم دون كدٍّ منهم ولا نصب ، سعيٍ ولاتعب .

وبما أنّ جنس الإنسان لربّه لكنود ، وبما أنّ القليل من عباد الله تعالى هو الشّكور ، بينما الكثير هو الكفور ، وبما أنّ بنى إسرائيل قد أثبتوا أنّهم أكثر خلق الله تعالى تقلُّباً وتلوّناً ، وبما أنّ جنس الإنسان يطغى أن رآه استغنى ، فقد حذّرت الآية الكريمة بنى إسرائيل ، ليس من الإفساد فى الأرض فقط وهم المفسدون ، بل من التّمادى فى الإفساد والإصرار على ارتكاب أشدّ الإفساد الّذى بكلٍّ يُعْرَفون .

وتدخل الألف واللّام على أرض ﴿ ولا تعثَوْا فى الأرض مفسدين ﴾ . كى تشمل الأرض الّتى كانوا فيها آنذاك ، وتشمل وراء ذلك كلَّ أرض يصلون إليها . إنّ الإفساد فى الأرض طبع القوم وديدنهم ، ولذلك استحقّوا ويستحقّون أن ينتقم الله تعالى منهم وأن

يأخذهم جلّ وعلا أخذ عزيزٍ مقتدر كلّ مرّةٍ أفسدوا فيها فى الأرض وانحرفوا عن جادة الصّواب . إنّ السّنّة ماضية والوعد لا يتخلّف فى قوله عزّ من قائل[١] ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ والمعنى إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الانتقام . وإنّ غداً لناظره قريب .

الآيــة رقــم (٦١)

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعامٍ واحدٍ فادع لنا ربّك يُخْرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الّذى هو أدنى بالّذى هو خير . اهبطوا مصراً فإنّ لكم ماسألتم . وضُرِبَتْ عليهم الذّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير الحقّ . ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون ﴾ .

وإذ قلتم : كان هذا القول منهم فى التّيه حين ملّوا المنّ والسّلوى وتذكّروا عيشهم الأوّل بمصر . قال الحسن : كانوا نتانى أهل كرّاثٍ وأبصالٍ وأعداسٍ ، فنزعوا إلى عِكْرِهم[٢] عكر السّوء ، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا : لن نصبر على طعامٍ واحد[٣] .

الطّعام : اسمٌ لما يطعم كالعطاء اسمٌ لما يُعْطى وهو جنس[٤] ويطلق على ما يُطْعَم ويُشْرب . قال الله تعالى : ومن لم يطعمه فإنّه منّى . وقال : ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جناحٌ فيما طعموا[٥] .

الواحد : هو الّذى لا يتبعّض والّذى لا يضمّ إليه ثان[٦] وكنوا عن المنّ والسّلوى

---

(١) سورة الإسراء ٨

(٢) العكر بالكسر العادة والدّيدن والأصل وبالتّحريك صدأ السّيف ومن كلّ شيءٍ خاثرة .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٥٩ وانظر تفسير ابن كثير ١٠١/١ .

(٤) البحر المحيط ٢١٩/١ (٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٠

(٦) البحر المحيط ٢١٩/١

بطعامٍ واحدٍ وهما اثنان لأنّهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فلذلك قالوا : طعام واحد[١] أو لأنّهم أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدّل ولو كان على مائدة الرّجل ألوان عديدة يداوم عليها كل يوم لا يبدّلها قيل : لا يأكل فلان إلاّ طعاماً واحدا . يراد بالوحدة نفي التّبدّل والاختلاف[٢]

الدّعاء : التّصويت باسم المدعوّ على سبيل النّداء[٣] .

يُخْرج : مجزوم على معنى سله وقل له .... والأولى أن يكون المفعول محذوفاً دلّ عليه سائر الكلام . التّقدير يخرج لنا ممّا تنبيت الأرض مأكولاً[٤] .

ممّا : ما موصولة[٥] والمختار كون من في الموضعين في الآية الكريمة للتّبعيض[٦] ومن بقلها بدل من ما بإعادة الحرف[٧] .

البقل : كلّ نباتٍ ليس له ساق . والشّجر ما له ساق[٨] .

القثّاء اسم جنس واحده قثّاءة بضمّ القاف وكسرها : نوع من النّبات ثمره يشبه ثمر الخيار . وقال الخليل هو الخيار[٩] .

وفومها : اختلف في الفوم فقيل : هو الثّوم لأنّه المشاكل للبصل . رواه جويبر عن الضّحّاك . والثّاء تبدل من الفاء كما قالوا : مغافير ومغاثير[١٠] وجدث وجدف للقبر . وقرأ ابن مسعود ثومها بالثّاء المثلّثة . وروى ذلك عن ابن عبّاس .... وقيل : الفوم الحنطة . روى عن ابن عبّاسٍ أيضاً وأكثر المفسّرين واختاره النّحّاس . قال : وهو أَوْلى ومن قال به أعلى وأسانيده صحاح ..... وأنشد ابن عبّاس لمن سألّه عن الفوم وأنّه الحنطة قول أُحَيْحة بن الجُلاح :

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٦٠ (٢) البحر المحيط ١/٢٣٢

(٣) البحر المحيط ١/٢١٩ (٤) تفسير القرطبيّ ص ٣٦١

(٥) البحر المحيط ١/٢٣٢ (٦) البحر المحيط ١/٢٣٣

(٧) تفسير القرطبي ص ٣٦١ (٨) تفسير القرطبي ص ٣٦١

(٩) انظر البحر المحيط ١/٢١٩ وانظر تفسير القرطبي ص ٣٦٢ وأكل عائشة رضى الله عنها القثّاء بالرّطب .

(١٠) المغافير : صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيّبة .

قد كنت أغنى النّاس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة قوم[١]

وقال أبو إسحاق الزّجّاج : « وكيف يطلب القوم طعاماً لا برّ فيه والبرّ أصل الغذاء »[٢] .

أتستبدلون : الهمزة للإنكار . والاستبدال الاعتياض[٣] ووضع الشّىء موضع الآخر ومنه البدل[٤] .

أدنى : أخسّ وأوضع وأصغر قدراً وخطرا[٥] وهو « مأخوذٌ عن الزّجّاج من الدّنو أى القرب فى القيمة من قولهم : ثوبٌ مقارب أى قليل الثمن . وقال على بن سليمان [الأخفش][٦] هو مهموز من الدّنىء البيّن الدّناءة ، بمعنى الأخسّ إلاّ أنّه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدّون أى الأحطّ فأصله أدون ، أفْعَل ، قُلِب فجاء أفلع . وحوّلت الواو ألفاً لتطرّفها[٧] .

اهبطوا مصرا : أى انحدروا إليه من التّيه . يقال : هبط الوادى إذا نزل به . وهبط منه إذا خرج . وبلاد التّيه ما بين القدس إلى قِنّسْرين[٨] وهى اثنا عشر فرسخاً فى ثمانية فراسخ[٩] .

ومصراً بالتّنوين منكّراً قراءة الجمهور ، وهو خطّ المصحف . قال مجاهد وغيره :

---

(١) فى دراستنا وجمعنا وتحقيقنا لديوان أُحَيْحَة بن الجلاح الأوسىّ الجاهلىّ تبيّن أنّ الشّاعر موغلٌ فى الجاهليّة بينما لفظ المدينة إسلاميّ . انظر الدّيوان ص ١٨ وص ٨٢ وإذا كان البيت منسوباً لأحيحة فى تفسير الطّبرىّ ٢٤٧/١ وتفسير ابن كثير ١٠١/١ والبحر المحيط ٢١٩/١ وتفسير القرطبىّ ص ٣٦٢ والرّوض الأنف ٤٥/٣ فقد جاء فى الرّوض « وقيل لأبى محجن الثّقفىّ » رواية البحر المحيط .

قد كنت أحسبنى كأغنى واحد :. قدم المدينة ... ورواية الرّوض « سكن المدينة » .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٤٦/١ ، ٢٤٧

(٣) البحر المحيط ٢٣٣/١

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٤

(٥) تفسير الطّبرىّ ٢٤٧/١

(٦) انظر البحر المحيط ٢١٩/١

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٤

(٨) قنّسرين بكسر أوّله وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قوم ثمّ سين مهملة ، كورة بالشّام منها حلب . وكانت قنّسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص . وما زالت عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١ هـ وغلب الرّوم على مدينة حلب فخاف أهل قنّسرين وتفرّقوا فى البلاد . انظر معجم البلدان .

(٩) الكشّاف ٢١٨/١

فمن صرفها أراد مصراً من الأمصار غير معيّن . وروى عكرمة عن ابن عبّاس فى قوله : اهبطوا مصراً قال : مصراً من هذه الأمصار . وقالت طائفةٌ ممّن صرفها أيضاً : أراد مصر فرعون بعينها . استدلّ الأوّلون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية وبما تظاهرت به الرّواية أنّهم سكنوا الشّام بعد التّيه . واستدلّ الآخرون بما فى القرآن من أنّ الله أورث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائىّ : لخفّتها وشبهها بهند ودعد وأنشد :

لم تتلفّع بفضل مئزرها دعدٌ ولم تُسْقَ دعدُ فى العُلَب

فجمع بين اللّغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هذا لأنّك لو سمّيت امرأةً بزيدٍ لم تُصرّف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصرف.

وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وطلحة : مصر ، بترك الصّرف . وكذلك هى فى مصحف أبىّ بن كعب وقراءة ابن مسعود . وقالوا : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون ذكره ابن عطيّة[١] .

ضربت عليهم الذّلّة والمسكنة : أى ألزموهما وقضي عليهم بهما[٢] وإن كانوا أغنياء لزوم الدّرهم المضروب لسكّته[٣] : ويقول أبو حيّان[٤] « ومعنى الضّرب هنا الإلزام والقضاء عليهم من ضرب الأمير البعث على الجيش . وكقول العرب ضربة لازم .... وقيل معناه الإحاطة بهم والاشتمال عليهم مأخوذ من ضرب القباب » .

والذّلّة : الذّلّ والصّغار[٥] والهوان[٦] مصدر ذلَّ يذلّ ذِلةً وذلاً . وقيل : الذّلّة كأنّها هيئة من الذّلّ كالجلسة . والذّلّ : الخضوع وذهاب الصّعوبة[٧] ويقول

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٦٥ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٤٨/١ والبحر المحيط ٢٣٤/١

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٦

(٣) الجلالين . والسّكّة : حديدة منقوشة تضرب عليها الدّراهم .

(٤) البحر المحيط ٢٣٥/١ وانظر الكشّاف ٢١٨/١ واقتفاء أبى حيّان خطوات الزّمخشرىّ . وانظر تفسير الطبرىّ ٢٤٩/١ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٦ وتفسير الطّبرىّ ٣٥٠/١

(٦) البحر المحيط ٢٣٦/١ (٧) البحر المحيط ٢٢٠/١

الطبرىّ[١] : « وأمّا الذِلّة فهى الفِعْلة من قول القائل : ذلّ فلان يذلّ ذلاً وذلّـة ، كالصِغّرة من صغر الأمر والقِعدة من قعد » ويقول أبو حيّان[٢] : « فلا ترى ملّةً من الملل أذلّ وأحرص من اليهود » .

« وأمّا المسكنة فإنّها مصدر المسكين يقال : ما فيهم أسكن من فلان . وما كان مسكيناً . ولقد تمسكن مسكنة . ومن العرب من يقول تمسكن تمسكناً . والمسكنة فى هذاالموضع مسكنة الفاقة والحاجة وهى خشوعها وذلّها »[٣] « فلا يوجد يهودىّ وإن كان غنياً خالياً من زىّ الفقر وخضوعه ومهانته .... والمسكنة الخضوع . وهى مأخوذة من السّكون ، أى قلّل الفقر حركته الزّجّاج[٤] ويقول أبو حيان[٥] : « المسكنة مفعلةٌ من السّكون . ومنه سمّى المسكين لقلّة حركته وفتور نشاطه » ويقول[٦] : « وأمّا المسكنة فالخشوع ، فلا يرى يهودىٌّ إلاّ وهو بادى الخشوع » « والمضروب عليهم الذلّة والمسكنة اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ . قاله الجمهور »[٧] .

وباءوا بغضبٍ من الله : « قال أبو جعفر يعنى بقوله وباءوا بغضبٍ من الله ، انصرفوا ورجعوا . ولا يقال باءوا إلاّ موصولاً إمّا بخير وإمّا بشرّ . يقال منه : باء فلانٌ بذنبه يبوء به بواً وبواءً . ومنه قول الله عزّ وجلّ : إنّى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، يعنى تنصرف متحمّلهما وترجع بهما قد صارا عليك دونى »[٨] ومنه قوله عليه السّلام فى دعائه ومناجاته : أبوء بنعمتك علىّ ، أى أقرّبها وألزمها نفسى[٩] و « قولك : باء فلانٌ بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له ومكافأته ، أى صاروا أحقّاء بغضبه »[١٠] .

ويقتلون النبيّين . يقول الطّبرى[١١] : « واحدهم نبىّ غير مهموز ، وأصله الهمز ، لأنّه من أنبأ عن الله فهو ينبئ عنه إنباءً . وإنّما الاسم منه منبئ ولكنّه صرف وهو مفعل

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٤٩
(٢) البحر المحيط ١/٢٣٦
(٣) تفسير الطّبرىّ ١/٢٥٠
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٦
(٥) البحر المحيط ١/٢٢٠
(٦) البحر المحيط ١/٢٣٦
(٧) البحر المحيط ١/٢٣٦
(٨) تفسير الطّبرى ١/٢٥٠
(٩) تفسير القرطبى ص ٢٦٦
(١٠) الكشّاف ١/٢١٩ وانظر البحر المحيط ٢٣٦ .
(١١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٥١

إلى فعيل ، كما صرف سميع إلى فعيل من مفعل ، وبصير من مبصر وأشباه ذلك . وأبدل مكان الهمزة من النّبىء الياء فقيل نبىّ . هذا ويجمع النّبىّ أيضاً على أنبياء ، وإنّما جمعوه كذلك لإلحاقهم النّبىء بإبدال الهمزة منه ياءً بالنعوت الّتى تأتى على تقدير فعيل من ذوات الياء والواو ، وذلك أنّهم إذا جمعوا ما كان من النّعوت على تقدير فعيل من ذوات الياء والواو جمعوه على أفعلاء ، كقولهم ولىّ وأولياء ووصىّ وأوصياء ودعىّ وأدعياء . ولو جمعوه على أصله الّذى هو أصله وعلى أنّ الواحد نبىء مهموز لجمعوه على فُعَلاء فقيل لهم النُّبآء على مثال النُّبعاء ، لأنّ ذلك جمع ما كان على فعيل من غير ذوات الياء والواو من النّعوت ، كجمعهم الشّريك شركاء والعليم علماء والحكيم حكماء ، وما أشبه ذلك . وقد حكي سماعاً من العرب فى جمع النّبىّ النّبآء ، وذلك من لغة الّذين يهمزون النّبي ثمّ يجمعونه على النّبآء » .

بغير الحقّ : « معناه أنّهم قتلوهم بغير الحقّ عندهم ..... فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقّون به القتل عندهم »[١] و لم يأت نبيٌّ قطّ بشىءٍ يوجب قتله[٢] « قال ابن عبّاس والحسن : لم يُقْتل نبيٌّ قطّ من الأنبياء إلاّ من لم يؤمر بقتال . وكلّ من أُمر بقتالٍ نُصِر »[٣]

ذلك بما عصوا : الباء فى بما باء السّبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم والعصيان خلاف الطّاعة[٤] فما فى قوله بما عصوا مصدريّة[٥] .

والاعتداء : تجاوز الحدّ فى كلّ شىء وعُرف فى الظّلم والمعاصى[٦] وتجاوز الحدّ الّذى حدّه الله لعباده إلى غيره[٧] .

تخاطب الآية الكريمة بنى إسرائيل فى أشخاص المعاصرين للمصطفى ﷺ ، منبّهةً إلى مظهرٍ من المظاهر الّتى تدلّ على سرعة نفاد صبر بنى إسرائيل وضيق عطنهم ، بل إلى

---

(١) الكشّاف ٢١٩/١
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٨
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٨
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٨
(٥) البحر المحيط ٢٣٧/١
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٨
(٧) تفسير الطّبرىّ ٢٥١/١

حمقهم وسفههم باستبدالهم الّذى هى أدنى بالّذى هو خير . والآية الكريمة تبدأ على غرار كلّ آية كريمة سابقةٍ تنبّه إلى نعمةٍ من نعم الله تعالى على القوم . والمعنى دائما هو : واذكروا إذ . والمعنى هنا . واذكرو يا بنى إسرائيل إذ قلتم ، والمراد آباؤكم الّذين ورثتم عنهم خلالهم : « يا موسى » . هكذا فى الطّريقة الّتى تَنُمُّ عن سوء أدبهم مع أنبيائهم ، بل مع أكبر أنبياء بنى إسرائيل ، فكيف بهم مع غيرهم . لن نصبر على طعامٍ واحد . هكذا يعبّر بنو إسرائيل فى طريقةٍ صارمة عن نفاد صبرهم وعن رأيهم النّهائىّ تجاه نعمة الله تعالى الكبرى عليهم بإنزال المنّ والسلوى فى التّيه . إنّهم رغم علمهم اليقينىّ بعظم هذه النّعمة ، فهم يأكلون ألذ طعامٍ وأشهاه وأصحّه ، وهم يرزقون ذلك فضلاً من الله تعالى ونعمةً عليهم إذ لا يبذلون أدنى مجهود من أجل الحصول على الطّعام وعلى الشّراب ، وهم الّذين يتيهون بأمر الله تعالى فى أرضٍ أقرب إلى البدو منها إلى الحضر ، إنّهم رغم علمهم بكلّ هذه النّعم يتبرّمون من ذلك الإكرام ويتضجّرون من ذلك الإنعام وقديماً قال الشّاعر الحكيم[1] :

وإن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

إنّهم يعتبرون أكل المنّ والسّلوى دواماً فى أرض التّيه أمراً شاقّاً عليهم ، فهم لا يطيقونه ، وها هم أولاء يعبّرون عن نفاد صبرهم وتحمّلهم ما لا يطاق بالقول : لن نصبر على طعامٍ واحد . إنّه رأىٌ أخير وحاسم ، يعبّرون عنه فى هذه الطّريقة الجافّة الفظّة . ومع أنّ الطّعام نوعان ، فهو منّ وسلوى ، إذ يأكلون أشهى أنواع العسل النّازل من السّماء بألذّ أنواع لحم الطّير الّتى ساقها إليهم ربّ العباد كى ينتقوا منها ما أحبّوا ، فإنّهم يعبّرون عن الطّعامين بكونهما طعاماً واحداً تأكيداً لنفاد صبرهم وتحمّلهم من الصّعاب ما لا يطاق . إنّه ما أصعب الأمر فى حقّ الّذين يفهمون الإكرام إهانةً أن يأكلوا دوماً ، دون تعبٍ ولا نصب ، أشهى اللّحوم بألذ أنواع العسل . إنّهم يعتبرون ذلك النّوع من الإكرام ابتلاءً ليس وراءه ابتلاء ، إذ لم يعهدوا مثل هذه النّعمة ولا قريباً منها من قبل وهم الّذين كانوا إلى وقتٍ قريبٍ يسامون من فرعون وآله سوء العذاب . إنّهم

---

(١) ديوان المتنبّى ١/٢٨٨

حديثو عهدٍ بنعمة ، وإنّ الطفرة كبيرةٌ فى حقّهم والنّقلة واسعة ، من أكل ما تنبت الأرض إلى ما ينزل من السّماء . وها هم أولاء يحنّون إلى ماضيهم غير البعيد ، ويصرفهم عن السّماء ويشدّهم إلى الأرض قديم طبعهم وسابق عهدهم .

إنّهم بعد أن نفوا صبرهم على الطّعام الواحد ، خاطبوا موسى عليه السّلام فى صيغة الأمر طالبين منه ، فى سبيل تحقيق ما يريدون تحقيقه مترتّباً على نفاد صبرهم الذى عبّروا عنه فى أصرح عبارةٍ ، ومُسَبَّباً عن عدم قدرتهم مطلقاً على مواصلة أكل الطّعام الواحد ، طالبين منه ، أن يدعو ربّه ، ويلاحظ أنّهم لا يقولون « ربّنا » ويعتبر هذا التّعبير على لسانهم ﴿ فادع لنا ربّك يُخرْج ﴾ امتداداً لسوء أخلاقهم ، وفساد طباعهم ، وغلظ أكبادهم .

ولمّا كان المطلوب من موسى عليه السّلام أن يخرج لهم ممّا تنبت الأرض فقد استعملوا ضمير جماعة المتكلّمين وذلك فى القول على لسانهم ﴿ يخرج لنا ممّا تنبت الأرض ﴾ إنّ الجانب من الكلام الموصول بالسّماء مرتبطٌ بموسى عليه السّلام . وإنّ الجانب من الكلام الموصول بالأرض ، فى أثناء الدّعاء ، وثمرةٌ له ، مرتبطٌ بالقوم : ﴿ فادع لنا ربّك يخرج لنا ﴾ .

ويصحّ أن نفهم علم بنى إسرائيل بعدم رضا موسى عليه السّلام عن طلبهم وعن انصرافهم عن رزق الله من السّماء إلى ما تنبت الأرض ، ويصحّ أن نفهم أنّ علم بنى إسرائيل بعدم رضا موسى عليه السّلام عن طلبهم كان فى أثناء طلبهم الدّعاء منه تصريحاً ، أو من قبل فى أثناء تعبيرهم عن نفاد صبرهم تلميحا . إنّ مثل هذا الفهم معمّق لما يلاحظ من انصراف بنى إسرائيل عن السّماء وإخلادهم إلى الأرض .

وما الّذى طلب قوم موسى عليه السّلام أن يدعو ربّه جلّ وعلا أن يخرجه من الأرض من أجلهم ؟ إنّه الّذى يدلّ على دناءة نفوسهم وعلى كسلهم وإخلادهم إلى الرّاحة .

---

(١) ديوان المتنبّى ٢٨٨/١

أمّا دناءة نفوسهم فلأنهم يطلبون من هيّن ما تنبت الأرض وصغيره بالقياس إلى المنّ والسّلوى وبالنّظر إليه فى ذاته معنىً وشكلاً . إنّهم يطلبون مجموعةً من نبات الأرض يجمع بينها شكلاً دنوّها من الأرض أو لصوقها بها . إنّهم يطلبون أنواع البقول والقثّاء والحنطة والعدس والبصل . وفى ذكر البصل ذكرٌ ضمنّى للثّوم إذا فهمنا الفوم بمعنى الحنطة والبرّ . والملاحظ وراء ذلك أنّهم يطلبون أموراً طال إلفهم لها واعتيادهم عليها حينما كانوا فى مصر فهم يحنّون إليها . وأمّا الدّليل على كسل القوم وإخلادهم إلى الدّعة والرّاحة والأرض فهو أنهم يطلبون من موسى عليه السّلام أن يدعو ربّه جلّ وعلا ، امتداداً لنعم الله تعالى الّتى يكفرونها دائماً ، وجرياً وراء تلبية موسى عليه السّلام ما يطلبون منه ، إكراماً من الله تعالى لموسى عليه السّلام وتأييداً له بالمعجزات . إنّهم يرغبون عن العمل الّذى ألفوه فى مصر وهم يفلحون ويسامون الخسف ، ويريدون أن يتمّ حصولهم على الأدنى وقد رغبوا عن الأَوْلى عن طريق المعجزة . وكيف لا يتوقّع أصحاب الفهم السّقيم تحقّق المعجزة بشأن هيّن الطّعام وهى الّتى تتحقّق كلّ وقتٍ بشأن جليله فى هيئة المنّ والسّلوى .

وينبّههم موسى عليه السّلام إلى خطئهم فى هيئة الاستفهام الإنكارى : ﴿ أتستبدلون الّذى هو أدنى بالّذى هو خير ﴾ إنّ موسى عليه السّلام ينكر عليهم فى استفهامه أن يستبدلوا الطّعام الّذى هو أقل شأناً وأهون جمعاً ، وأكثر عناءً ، وأطول شقاءً ، وأدنى فائدة ، بالطّعام الّذى هو خير . فالمنّ والسّلوى يرزقهم الله تعالى منهما وهما الطّعام والشّراب والّدواء فضلاً منه وكرماً ، ولولا ذلك لتعذّر حصولهم على شيءٍ قليلٍ من العسل الّذى يقلّ عن المنّ جودةً وطعماً وفائدة بالكثير من المراحل ، وعلى نزر يسير من لحم طائر السُّمانى ، الّذى تفضّل عليهم ربّ العزّة بشأنها فحشرها لهم وحبسها من أجلهم كى يختاروا منها ما شاءوا وينتقوا منها ما أحبّوا . إنّ طائراً واحداً فى جوّ السّماء يعسر صيده ، فكيف بذلك الحشد الهائل من طائرا السُّمانى الّذى يأخذون منه حاجتهم ويتركون ما يفيض عن تلك الحاجة .

إنّ ربّ العزّة امتنّ عليهم فى التّيه بأمورٍ مصيريّة فى حقّهم ويتوقّف على وجودها

بقاؤهم وعلى عدم وجودها فناؤهم ، كالماء الّذى اشتدت حاجتهم إليه ، وكالحرارة الّتى اشتدت وطأتها عليهم ، وكالجوع والعطش اللّذين يلازمان كلّ تائه ، فكيف بالتّيهان إذا كان عقاباً من الله تعالى وكان طويلا . إنّ ربّ العزّة كرماً منه جلّ وعلا وفضلاً وقد ابتلى بنى إسرائيل بالتّيهان كفاء عصيانهم ، يفجّر لهم العيون ، ويظلّل عليهم الغمام ، وينزل عليهم المنّ والسّلوى ، وهذه النّعم الكبرى رمزٌ لسواها . ويتمادى بنو إسرائيل فى الأشر والبطر فيعلنون بقوّة أنّهم لن يصبروا أبداً على إكرام الله تعالى لهم الدّائم بالمنّ والسّلوى لأنّهما طعامٌ واحد . ويريدون الحصول على أدنى الطّعام الّذى سمَّوْا عن طريق المعجزة كذلك ! إنّ القوم لا يستحقّون أن يهتمّ لطلبهم أو أن يؤبه لهم . وها هو ذا موسى عليه السلام ينبّههم إلى خطئهم فى طريقة استفهاميّةٍ إنكاريّة يفهم منها تبكيته لهم وتحقيره لشأنهم وتهوينه لطلبهم وذلك باستبدالهم الّذى هو أدنى بالّذى هو خير .

ويتمّم إنكار موسى عليه السّلام على قومه بإيحاء الله تعالى له عليه السّلام بأن يأمرهم بأن يتّجهوا من البدو إلى أىّ مصرٍ من الأمصار فى أرض الشّام ويحلّوا به كى يجدوا فيه طلْبتهم الهيّنة ، وأمنيّتهم الرّخيصة . إنّ الأمور البسيطة الهيّنة الّتى سألوها سيجدونها لبساطتها فى أىّ مصرٍ من الأمصار يحلّون به ويسكنونه . إنّ فى كلّ قطرٍ من الأقطار ، ومصرٍ من الأمصار ، وقريةٍ من القرى ، وبخاصّةٍ فى أرض الشّام الّتى باركها الله تعالى بالخيرات كما باركها بالأنبياء ، ما يسألون من البقول والقثّاء والحبوب والعدس والبصل . وعليهم أن يعلموا يقيناً أنّ حصولهم على الّذى هو أدنى يعنى غياب الّذى هو خير وارتفاعه . أوَ ليس القوم هم الّذين استبدلوا الّذى هو أدنى بالّذى هو خير ؟ إذن فليلبّ طلب الدّنىء ولْيُجَبِ الهيّنُ المهين إلى مسألته .

وليس إيثار بنى إسرائيل الّذى هو أدنى وتفضيله على الّذى هو خير ، بينما موسى عليه السّلام الّذى يوقفهم على خطئهم بين ظهرانيْهم ، إلاّ مقدّمةً لبطرٍ كبير ، وأشرٍ مرير ، وشرٍّ مستطير ، وطغيانٍ خطير . وقد قفزت الآية الكريمة الكثير من المظاهر على كلّ ذلك والأدلّة ، إلى عاقبة القوم الوخيمة ، وهى ذات شقّين : الذلّة والمسكنة اللّتان ضربتا عليهم والغضب من الله تعالى الّذى باءوا به ، وإلى العملين اللّذين أدى كلٌّ منهما إلى

إحدى العاقبتين السّابقتين على التّوالى ، وهذان العملان هما الكفر بآيات الله تعالى وقتل النبيّين بغير الحقّ ، وإلى الباعثين على كلٍّ من الكفر والقتل وهما على التّوالى العصيان والاعتداء . يحدث كلّ ذلك فى أسلوب القرآن الكريم المعجز الّذى يرضى كلَّ عقلٍ بفصوص حكمه ويشبع كلّ نفس برائع نظمه ، وعذوبة لفظه ، وجليل معناه ، وجميل صوته ، وحلو جرسه ، وتدفّق مائه ، وكثرة رونقه .

ونستطيع أن نقول ابتداءً ، بشأن نظم هذه المعانى المعجز ، إنّ ثمّة أموراً يمكن ملاحظتها بيسر وهى على التّوالى :

(أ) إنّ ثمّة درجاتٍ ثلاثاً تتدرّج فيها المعانى .

(ب) إنّ كلاً من الدّرجات الثلاث ذات شقّين .

(جـ) إنّ كلّ درجةٍ مبنيّةٌ على الأخرى ومترتّبةٌ عليها .

(د) كان الابتداء بأعلى الدّرجات .

(هـ) إنّ الشّقّ الثّانى فى كلّ درجة يصحّ أن يقال إنّه مبنىٌّ على الشّقّ الأول ومترتّب عليه فى الدّرجة ذاتها .

وفى الإمكان أن نسجّل درجات كلٍّ شقٍّ على حدة ، مبتدئين من أدناها كى يسهل علينا تبيّن البناء المحكم .

وهذه هى درجات الشقّ الأوّل :

(أ) عصيان ﴿ ذلك بما عصوا ﴾ .

(ب) كفرٌ بآيات الله ﴿ ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ .

(جـ) ذلّةٌ ومسكنة ﴿ وضُرِبت عليهم الذّلّة والمسكنة ﴾ .

وهذه هى درجات الشّقّ الثّانى :

(أ) اعتداء ﴿ وكانوا يعتدون ﴾ .

(ب) قتل النبيّين ﴿ ويقتلون النّبيّين بغير الحقّ ﴾ .

(جـ) غضب الله عليهم ﴿ وباءوا بغضبٍ من الله ﴾ .

وفى الإمكان كذلك أن نسجّل الدّرجات الستّ هذه المرّة فى نسق ، باعتبار الشّقّ

الأوّل فى كلّ مرحلةٍ من المراحل الثلاث يشكّل درجةً قائمةً بذاتها بالقياس إلى الشقّ الثّانى الّذى يشكّل هو الآخر درجةً قائمةً بذاتها باعتبار ما سبقه ولحق به ، كى يسهل علينا أيضاً تبيّن البناء المحكم .

وهذه هى الدّرجات الستّ أو المراحل السّتّ :

(ا + ب) عصيان واعتداء ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

(جـ + د) كفر بآيات الله وقتل النّبيّين : ﴿ ذلك بانّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحق ﴾ .

(هـ + و) ذلّة ومسكنةً وغضب الله عليهم : ﴿ وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله ﴾ .

ونستطيع أن نفهم من ابتداء درجات سلم المعانى بنهايتها وأعلاها ﴿ وضربت عليهم الذّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله ﴾ مدى سخط الله تعالى على بنى إسرائيل كفاء كفرانهم نعم الله تعالى ومخالفتهم تعاليم السّماء وطغيانهم الّذى ليس عليه من مزيد حينما يكون لهم فضلٌ من قوّة وشيءٌ من غلبة ، وإفسادهم فى الأرض الّذى ليس له حدود ، خلافاً لنهى الله تعالى لهم عن الإفساد وعنادا ، وقد قال تعالى : ﴿ ولاتعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

ونودّ أن نتأمّل درجات كلٍّ من الشّقّين ابتداءً من أولى الدّرجات كى يسهل علينا تبيّن مسار كلٍّ من الشّقّين .

لقد عصى بنو إسرائيل ربّهم جلّ وعلا وخالفوا أوامره فارتكبوا ما نهاهم الله تعالى عنه ولم يأتمروا بأمره ، وإذا كان عصيان بنى إسرائيل أوامر ربّهم جلّ وعلا قد كان مقروناً أوّل الأمر بإيمانهم بآيات الله تعالى على غرار القول على لسانهم[1] ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ والمعنى سمعنا قولك وعصينا أمرك . فإنّ تماديهم فى العصيان قادهم إلى درك من السّوء كفروا معه بآيات الله تعالى ، وفى مقدّمة تلك الآيات آيات التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى

---

(١) سورة البقرة ٩٣ (٢) سورة المائدة ٤٤

ونور ﴾ وما دام القوم قد فقدوا هدى الله تعالى ونوره الّذى جعله لعباده الصّالحين ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[1] فقد غدا القوم فى ظلامٍ دامس لأنّ أولياءهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات ، فاستحقّ القوم أن يُضْرَب عليهم الذّلّة والمسكنة فكأنّ الذّلّ والهوان والصّغار ، وكأنّ المسكنة والخضوع والخشوع قد ضُرِبَ كلُّ ذلك عليهم فصار ملازماً لهم لزوم نقش السّكّة الدّراهم الّتى ضرب عليها ، محيطاً بهم إحاطة القبّة المضروبة بمن ضُرِبت عليه . قال تعالى : ﴿ وضُرِبت عليهم الذّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله . ذلك بانّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير الحقّ . ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى درجات ثانى الشّقّين مبتدئين كذلك من أولاها استطعنا أن نتبيّن أنّ اعتداء بنى إسرائيل يعنى فى المقام الأوّل تجاوز الحدّ الّذى حدّه الله تعالى لعباده إلى غيره واعتداءهم على محارمه جلّ وعلا . واستمرّ القوم فى تجاوزهم حدود الله تعالى إلى الدّرجة الّتى قتلوا معها النبيّين بغير الحقّ . إنّهم على علم أكيد بأنّهم لو سئلوا عن السّبب الّذى من أجله أقدموا على قتل أنبياء الله تعالى ورسله لما كان لديهم هم أنفسهم الجواب لأنّهم مقتنعون بأنّهم فى اعتدائهم وقتلهم النّبيّين على باطل ، ومع ذلك هم لا يتورّعون عن ارتكاب أكبر المعاصى بقتلهم النبيّين . وما الّذى يستحقّ القوم كفاء قتلهم المصطفين الأخيار لأنّهم يقولون ربّنا الله ؟ يستحقّون غضب الله تعالى . وليس وراء غضب الله تعالى وسخطه ولعنه لهم وطردهم من رحمته وراء . قال تعالى : ﴿ وضربت عليهم الذّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحقّ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى درجات الشّقّين الستّ تبيّنّا أنّها درجات متداخلة وبينى بعضها على بعض بإحكام عجيب وترتيبٍ منضود . ونودّ أن نفعل هنا ما فعلنا بشأن درجات كلٍّ من الشّقّين مبتدئين من أولى درجات سلّم المعانى وأدناها .

---

(١) سورة النور ٤٠

لقد ابتدأ بنو إسرائيل بالعصيان الّذى أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ذلك بما عَصَوْا ﴾ والمعروف أنّ بنى إسرائيل حينما جاءهم موسى عليه السّلام بالتّوراة وقرأها عليهم جاء على لسانهم القول : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ والمعنى سمعنا قولك وعصينا أمرك . وتمادى القوم فى العصيان ، وتعدّوا حدود الله تعالى ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ وكانوا يعتدون ﴾ واستمرّ القوم فى تعدّى حدود الله تعالى إلى أن انتهى بهم الأمر إلى الكفر بآيات الله تعالى وفى مقدّمتها التّوراة ، وممّا قرّرته التّوراة أن يؤمن أتباع كلّ نبىّ بالنّبىّ المبعوث بعده ، تنفيذاً للعهد الّذى أخذه الله تعالى بذلك من النبيّين ومن أُمَمِهِمْ وهم تبعٌ لهم فى امتثال الأوامر والنّواهى . وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ وقد أدّى بهم الكفر بآيات الله تعالى السّماوية وفيها الكتاب السّماوىّ الموحى به من الله تعالى أن يتطاولوا على أنبياء الله تعالى وأن يؤذوهم وأن يقتلوهم ، وهم المصطفون الأخيار . وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ ويقتلون النبيّن بغير الحقّ ﴾ .

لقد استحقّ القوم أخيراً أن يضرب الله تعالى عليهم إلى الأبد الذّلّة والمسكنة ، وأن يبوءوا بغضبٍ من الله تعالى ، وأن يكون سخط الله تعالى ملازماً لهم ، ولعنته حالّةً بهم . لقد ضرب الله تعالى عليهم الذّلة والمسكنة فهى ملازمةٌ لهم ملازمة النّقش للمنقوش عليه ، محيطةٌ بهم إحاطة السّوار بالمعصم ، والغلّ للعنق ، والقبّة لما ضربت وبُنيت عليه . وباء القوم بغضب الله تعالى ورجعوا بسخطه وآبوا بلعنته . إنّهم أهلٌ للغضب الّذى حلّ بهم كفاء الموبقات الّتى ارتكبوا وأعظمها قتلهم النبيّين بغير الحقّ . وهل يستحقّ النّبيّون القتل بوجه حقٍّ ؟ لا إنّهم لا يستحقّون وإنّ القوم على علمٍ بذلك لدرجة أنّهم لو سئلوا : لم قتلتم النبيّن لكان جوابهم الواحد الدّائم : لقد قتلنا النّبيّن بغير حقّ . ومن باب الأَوْلى والأحرى أن يكون قتلهم النبيّن بغير حقّ فى رأى الآخرين غير المغضوب عليهم وغير الضّالّين .

الآيــة رقــم (٦٢)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والنّصارى والصّابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

إنّ الّذين آمنوا : أى صدّقوا بمحمّد ﷺ[١] .

والّذين هادوا : معناه صاروا يهودا . نسبوا إلى يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب عليه السّلام . فقلبت العرب الذّال دالاً لأنّ الأعجميّة إذا عُرِّبت غُيِّرت عن لفظها . وقيل : سمّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التّائب .... وفى التّنزيل : إنّا هُدْنا إليك ، أى تبنا ، وهاد القوم يهودون هوداً وهيادةً إذا تابوا[٢] وعليه تكون ألف هاد منقلبة عن واو لأنّ المضارع يهود[٣] .

والنّصارى جمع نصران ونصرانة مثل ندمان وندمانة[٤] وسكران وسكرانة ونشوان ونشوانة ، وكذلك جمع كلّ نعتٍ كان واحده على فعلان ، فإنّ جمعه على فعالى ، إلاّ أنّ المستفيض من كلام العرب فى واحد النّصارى[٥] أن يقال : رجل نصرانىّ وامرأة نصرانية [٦] « قال سيبويه : إلاّ أنّه لا يستعمل فى الكلام إلاّ بياء النّسب فيكون كلحيان ولحيانىّ وكأحمرىّ»[٧] قيل : سمّوا بذلك لقريةٍ تسمّى ناصرة كان ينزلها عيسى عليه السّلام فنسب إليها فقيل : عيسى النّاصر . فلمّا نسب أصحابه إليه قيل : النّصارى . قاله ابن عبّاس وقتادة . وقال الجوهرىّ: ونصران قريةٌ بالشّام ينسب إليها النّصارى ويقال ناصرة »[٨] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٨ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٨

(٣) البحر المحيط ٢٣٨/١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٥٢/١ وتفسير ابن كثير ١٠٣/١ .

(٤) البحر المحيط ٢٣٨/١

(٥) انظر تفسير الطبرى ٢٥٢/١ وتفسير ابن كثير ١٠٣/١

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٦٩ (٧) البحر المحيط ٢٣٨/١

(٨) تفسير القرطبى ص ٣٦٩

والصّابئين ، بالهمز وهى قراءة الجمهور جمع صابئ ، من صبأت النّجوم إذا طلعت وصبأت ثنيّة الغلام إذا خرجت . فالصّابئ فى اللّغة من خرج من دينٍ إلى دين . ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم : قد صبأ[١] وهم فرقةٌ من أهل الكتاب[٢] ويقول القرطبىّ[٣] : « والّذى تحصّل من مذهبهم فيما ذكره بعض علمائنا أنّهم موحّدون معتقدون تأثير النّجوم وأنها فعّالة » .

من آمن بالله . مَنْ : يقع على الواحد والتّثنية والجمع . فجائزٌ أن يرجع الضّمير مفرداً ومثنًّى ومجموعاً . قال الله تعالى : ومنهم من يستمعون إليك . على المعنى . وقال : ومنهم من يستمع إليك على اللّفظ ..... وقال تعالى : ومن يطع الله ورسوله يدخله جنّات ، فحمل على اللّفظ ، ثم قال : خالدين ، فحمل على المعنى . ولو راعى اللّفظ لقال : خالداً فيها[٤] وقد جُمع الضّمير فى قوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم ﴾ .

فلهم : الفاء فى قوله : فلهم : داخلة بسبب الإبهام الّذى فى اسم الموصول « من » الواقع مبتدأ[٥] .

وأمّا قوله : ﴿ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، فإنه يعنى به جلّ ذكره : ولا خوفٌ عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدّنيا وعيشها عند معاينتهم ما أعدّ الله لهم من الثّواب والنّعيم المقيم عنده[٦] .

روي عن ابن عبّاس أنّ قوله : إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا الآية منسوخٌ بقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلنْ يُقْبَل منه ﴾ . الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة ، وهى فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنّبىّ عليه السلام[٧] .

بالنّظر إلى ما قيل بشأن نسخ الآية الكريمة أو عدم نسخها ، نحن نودّ أن نقول شيئاً

---

(١) انظر القرطبى ص ٣٧٠

(٢) انظر تفسير القرطبىّ ص ٣٧٠ وتفسير ابن كثير ١٠٤/١ وتفسير الطّبرىّ ٢٥٢/١

(٣) تفسير القرطبى ص ٣٧٠

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٧١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٥٤/١

(٥) انظر تفسير القرطبىّ ص ٣٧٠ والبحر المحيط ٢٤١/١

(٦) تفسير الطّبرىّ ٢٥٤/١

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٣٧١

مّا فى هذا الشّأن ، يتّضح معه مدى مسؤليّتنا نحـن المسـلمين تجاه هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده . ونوطّئ لذلك بالحديث عن معنى الآية الكريمة بعد أن وقفنا على المعنى الإجماليّ اللّغوى . تبدأ الآية الكريمة بالحديث عن الّذين آمنوا : ﴿ إنّ الّذين آمنوا ﴾ والمراد بالّذين آمنوا أمّة محمّدٍ ﷺ . ومعروفٌ أن محمّداً ﷺ خاتم النبيّين وأمّته آخر الأمم . وفى تقديم السّياق هذه الأمّة دليلٌ على رفيع منزلتها تبعاً لرفيع منزلة خاتم الأنبياء والمرسلين وزعيم أولى العزم من الرّسل . ويرتّب السّياق بعد ذلك الجماعات التّالية تاريخيّاً مقدّماً الأقدم فالأقدم . فالّذين هادوا هم اليهود أتباع موسى عليه السّلام . والنّصارى هم أتباع عيسى عليه السّلام الّذى يتأخّر زمناً عن موسى عليه السلام . والصّابئون ، وهم فرقةٌ من اليهود والنّصارى متأخّرون فى الوجود عن كلٍّ من اليهود والنّصارى .

وتنصّ الآية الكريمة على مجموعة من النّعوت ، إذا تحقّقت فى أتباع كلّ هذه الدّيانات السّماوية فإنّهم لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون من مواقف الموت والبعث والنّشور والحساب ، الثّواب أو العقاب ، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم فى هذه الحياة الدّنيا من أهلٍ وولد ومالٍ وجاه . إنّ الآخرة خيرٌ لهم من الأولى .

وبالنّظر إلى هذه الصّفات يتبيّن أنّها تنصّ ابتداءً على شقّيها البعيدين ، الإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر . وإنّ الإيمان بهذين الشّقّين البعيدين يعنى ضمناً الإيمان بما بينهما من الأركان الّتى يتألّف منها الإيمان ، وهذه الأركان هى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى . وينبغى أن يقترن الإيمان وصحّة المعتقد بالدّليل العمليّ الشّاهد عليهما ألا وهو عمل الصّالحات .

وبالنظر إلى أركان الإيمان يتبيّن أنّها فى حق الّذين أدركوا الرّسالة الخاتمة تتضمّن أركان الإسلام أيضاً ، لأنّ الإيمان بالرّسل يعنى الإيمان بآخرهم وخاتمهم محمّد بن عبد الله ﷺ . وأركان الإسلام خمسة ، ويتداخل بعضها مع أركان الإيمان . وهذه الأركان هى شهادة ألاّ إلـه إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ، وإقام الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا .

لقد كان النّاس أمّةً واحدةً توحّد الله تعالى وتعبده جلّ وعلا وحده لا شريك له . وبمرور الزّمن وابتعاد الذّرارى عن مصدر الخير أبيهم آدم عليه السّلام حصل الاختلاف ، وابتعد النّاس رويداً رويداً عن الصرّاط المستقيم . وبذلك ظهرت الحاجة لإرسال الرّسل من البشر ، الّذين يوحى الله تعالى إليهم فى طرقٍ شتّى ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجابٍ أو يُرْسِلَ رسولاً فيوحِى بإذنه ما يشاء إنّه علىٌّ حكيم ﴾ وبهذا يتحقّق الإيمان بالله تعالى وبالملائكة وبالكتب السّماوية المنزلة من السّماء ، وبالرّسل وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى.فليست هذه الحياة إلا طريقاً مؤدياً إلى الآخرة . وإذا كان الحرث فى هذه الحياة الأولى ، فإنّ الزّرع وجنى الثّمار فى الحياة الآخرة . إنّ الحياة الأولى عملٌ ولا جزاء . وإنّ الحياة الأخرى جزاءٌ ولا عمل .

وقد أخذ الله تعالى من النبيّين العهد الموثّق ، وإنّ أممهم تبعٌ لهم فى ذلك ، بأنّ عليهم إذا جاءهم رسولٌ من الله تعالى مصدقٌ لما معهم ، ممّا أوحى الله تعالى إلى النّبىّ السابق ، أن يؤمنوا به وينصروه . جاء فى سورة آل عمران[2] قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصُرُنّه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين . فمن تولىّ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ لقد أقرّ النّبيون بذلك وأعطوا على أنفسهم عهد الله وميثاقه ، بأن يؤمنوا هم أنفسهم ، إن كانوا أحياء ، بمن يبعثه الله تعالى من النبيّين وأن ينصروه . وإنّ أممهم تبعٌ لهم فى ذلك .

ممّا سبق يتبيّن أنّ واجب اليهود أن يؤمنوا بعيسى عليه السّلام وينصروه ، ولكنّهم كفروا به وخذلوه بل همّوا بقتله ، وأنّ واجب النّصارى أن يؤمنوا بمحمّد ﷺ وينصروه كما هو واجب كلٍّ من اليهود والصّابئين .

وإذا كانت رسالة محمّد بن عبد الله ﷺ قد انفردت بكونها رسالةً عالميّةً منذ

---

(١) سورة الشّورى ٥١ (٢) الآية ٨١ ، ٨٢

فجرها ، وهذه العالميّة إحدى الخصال الّتى خصّ الله تعالى بها محمّد بن عبد الله ﷺ ، فهذا معناه أنّ على كلّ البشر أن يتّبعوا خاتم الأنبياء والمرسلين الرّسول النّبىّ الأمّىّ محمّد بن عبد الله ﷺ .

فى ضوء هذا التّصوّر الّذى رسمنا يتبيّن أنّ المفروض فى اليهود والنّصارى والصّابئين وسواهم أن يكونوا مؤمنين بمحمّد ﷺ ناصرين له ، لأنّ محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وقد أخذ الله تعالى العهد على النبيّين ، وإنّ أممهم تبعٌ لهم ، أن يؤمنوا بالرّسول الخاتم حينما يبعث ويصدّقوه ، ولأنّ الإسلام الّذى جاء به محمد ﷺ ناسخٌ للدّيانات قبله ، وقد قال تعالى[١] : ﴿ إنّ الدين عند الله الإسلام ﴾ وقال تعالى[٢] ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ولأنّ القرآن الكريم ، الكتاب السّماوىّ الأخير ، هو المتضمّن لكلّ خيرٍ فى الكتب السماويّة السّابقة إضافةً إلى ما خصّ الله سبحانه وتعالى به هذا الكتاب من خير ، فهو المهيمن على الكتب السّماوية السّابقة ، وقد قال تعالى[٣] :﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ .

وفق المعانى الّتى سبق أن ذكرنا نستطيع أن نفهم قول ابن عبّاسٍ رضى الله تعالى عنهما ونقرّره :« إن قوله : ﴿ إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا ... ﴾ الآية منسوخٌ بقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ »[٤] ووراء ذلك نحن نودّ أن ننظر — فى ضوء واقع المسلمين اليوم بالمقارنة إلى واقعهم فى الماضى البعيد على جهة الخصوص — أن ننظر إلى قول ابن عبّاس وإلى قول غيره : إن الآية الكريمة ليست منسوخة ، وهى فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنّبىّ عليه الصلاة والسّلام .

لقد أثبت المسلمون فى فجر الإسلام للدّنيا كلّها أنّ الإسلام ناسخٌ للدّيانات كلّها وذلك بخلقهم الإسلامىّ العظيم وسلوكهم المستقيم ، ممّا نجم عنه دخول عباد الله تعالى أفواجا فى دين الله تعالى الّذى رضيه لهم . وهذا هو الّذى يفسر انسياح الدولة الإسلاميّة

---

(١) سورة آل عمران ١٩
(٢) سورة آل عمران ٨٥
(٣) سورة المائدة ٤٨
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٧١

فى فجر الإسلام شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فى سرعة خاطفةٍ لا نظير لها قبل ولا بعد ، إذ لم يكد يمضى قرنٌ واحدٌ من الزّمان حتّى كانت دولة لا إلـه ألاّ الله محمّد رسول الله ، تخفق رايتها على كلّ المناطق الّتى تشمل معظم العالم المتحضّر آنذاك من الصّين شرقاً إلى مشارف باريس غرباً ، ومن سيبريا شمالاً إلى المحيط جنوباً . وهذا هو الّذى يفسّر مثلا فتح المسلمين فى أقلّ من عامين اثنين إسبانيا والبرتغال . لقد كان الفتح فى حقيقته فتحاً حضارياً ، وهذا الّذى يفسّر رضا سكّان تلك المناطق أن يتخلّوا عن معتقداتهم وثقافاتهم وحضاراتهم ولغاتهم كى يعتنقوا الإسلام ، ويحتضنوا لغة القرآن الكـريم والحديث النّبوىّ الشّريف ، ويسهموا فى بناء صرح الحضارة الإسلاميّة العظيم .

لقد كان سلوك المسلمين آنذاك حجّةً للمسلمين وللإسلام ، وحجّةً على اليهود والنّصارى والصّابئين وسواهم بأنّ الدّين عند الله الإسلام ، فها هو ذا الاسلام يقدّم عقيدة التّوحيد الصّافية النّقيّة من كلّ شائبة ، وها هو ذا الإسلام يجعل من المسلمين الّذين طبّقوا تعاليمه الّتى تدعو إلى العمل ، أساتذة الّدنيا فى كل ميدان ، وهم الّذين كانوا أمّيّين فى جزيرتهم والّذين كانوا قبل الإسلام فى ضلالٍ مبين .

وإذا كان ربّ العزّة قد اصطفى العرب ، الّذيـن اصطفـى منهم خـاتم الأنبيـاء والمرسلين ، لحمل هذه الأمانة ابتداءً ، فأثبتوا هم والرّعيل الأوّل من المسلمين أنّهم خير أمّةٍ أخرجت للنّاس كما أراد لهم الله تعالى ، فإنّ هذا الجنس حينما قصّر فى جنب الله تعالى وناء بحمل الأمانة بل أعرض وتولّى ، صحّ فى حقّه قول الله تعالى[1] : ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

وقد شاء البارى جلّت قدرته أن ينال كلّ شعبٍ من الشّعوب الإسلاميّة الّتى ضحّت فى سبيل مجد الإسلام ، حظّه الموفور من بناء صرح الحضارة الإسلاميّة المجيدة . وإذا كان حظ العرب موفوراً من النّجاح ، فإنّ هذا الجنس حينما شغل عـن معـالى الأمـور بسفاسفها ، خلفته الشّعوب الإسلاميّة فى حمل راية الإسلام والعمل الجادّ والكدح

---

(١) سورة محمّد ﷺ ٣٨

من أجل مجده . ولقد كان حظّ اثنين من الشّعوب الإسلامية هو الموفور بالقياس إلى الشعوب الإسلاميّة الأخرى وفيهم العرب . والعجيب فى الأمر أنّ حظّ أوّل الشّعبين من النّجاح والتوفيق أكبر من حظّ ثانيهما . والعجيب فى الأمر كذلك أنّ أكبر الشّعوب حظّاً من النّجاح والتّوفيق هم العرب فى فجر الإسلام . أمّا الشعبان اللّذان خلفا العرب فى قيادة الأمّة الإسلامية وكان حظّهما من النّجاح والتّوفيق أقلّ على التّوالى فإنّهما الشّعب المغولى ، والشعب التّركىّ[1] وحينما سقطت الخلافة العثمانيّة ، رغم كونها فى أيّامها الأخيرة مجرّد اسم ، أصبح المسلمون فى حكم من ليس له القيادة التى توجّهه معنويّاً ومادّياً . ومن أعجب ما يلاحظ فى هذا الشّأن أنّ الدّولة العثمانيّة تقسّمت بسقوط دولة الخلافة إلى ما يزيد على الثّلاثين كياناً مستقلاً يقول الأستاذ الدّكتور حسين مؤنس فى هذا الشّأن[2] : « والحقيقة التى أريد أن أصل إليها ..... هى أنّ هجرات العرب سواء أكانت فرديّةً أو جماعيّة كانت من أقوى العوامل فى نشر الإسلام فى نواحى الأرض . ولقد تولّت شعوبٌ إسلاميّةٌ كثيرة فتح البلاد للإسلام مثل الفرس والتّرك بشتّى صنوفهم ، ولكنّ العرب وحدهم هم الّذين فتحوا البلاد والقلوب معاً ، وجعلوا ممّا فتحوا بلاد عروبةٍ وإسلامٍ حقّاً ، كما ترى فى فتوح العراق والشّام ومصر والمغرب والسّودان ، أمّا ما فتحه غيرهم فلا يصل قطّ إلى هذه النّتيجة الحاسمة . وإليك ما فتحه الأتراك العثمانيّون من بلاد أوربّا ، فإنّه لم يخلّف على ضخامته إلاّ إسلاماً قليلاً . وكان الأفغان وأبناء المغول أحسن حظاً فى الهند . ولكنّ العرب كانوا أنجح الجميع للخصائص الإنسانيّة الّتى ذكرناها . وسبحان ربّك الّذى اختار نبيّه من بين هذا الجنس الطّيّب الحسن العشرة القريب من القلوب ، ففتح به البلاد وقلوب العباد . والله أعلم حيث يضع رسالاته » .

فإذا تحوّلنا إلى واقعنا نحن المسلمين خلال القرون الثّمانية الأخيرة[3] وإلى معاملتنا لغير المسلمين وأهل الذّمّة ، وإلى سلوكنا ، هل يعتبر شهادةً لنا ولديننا ، وهل يعتبر

---

(١) انظر الإسلام الفاتح د. حسين مؤنس الباب الثانى العرب ونشر الإسلام ١٨٦ — ١٩٠ .

(٢) الإسلام الفاتح ص ١٩٠

(٣) انظر الرّسالة القيّمة فى هذا الشّأن لأبى الأعلى المودودى « شهادة الحق » .

شهادةً على الآخرين وعلى كونهم هم المسئولين عن إعراضهم عن دعوة الحقّ وهجرهم للصّراط المستقيم ، أم أنّ كلّ ذلك يعتبر شهادةً علينا بحيث إنّا ، بناءً على أقوالنا وأعمالنا ، لا نكاد نجرؤ على تبيين المعنى الحقّ للآية الكريمة الّتى نحن بصددها وكون الإسلام ناسخاً للدّيانات قبله ، لعلمنا الأكيد أنّ واقعنا الأليم لا يجعل سوى القليل الّذين هداهم الله تعالى إلى دينه الّذى رضيه لعباده عن طريق مجهوداتهم الذّاتيّة أو عن طريق الشّهادة الحقّة قولاً وعملاً من بعض الأفراد أو الجماعات ، لا يجعل سوى القليل هم الّذين يصدّقوننا حينما نبيّن لهم المعنى الحقّ للآية الكريمة .

الحقيقة باختصار أنّ أقوالنا فى مجموعها وأفعالنا شهادةٌ ضدّنا وعقبة كئود[1] فى طريق الإسلام ذاته حتّى إنّ الكثير من الواقفين على أمجاد الإسلام فى فجره من غير المسلمين يكادون لا يصدّقون أنّنا نحن من سلالة أولئك الأمجاد الّذين بنوا صرح مجد الإسلام فى فجره . إنّ أقوالنا وأفعالنا فى مجموعها لا تُعْطى المعنى الحقّ للآية الكريمة فلا يكاد أحدٌ يصدّقنا اليوم بأنّ الإسلام ناسخٌ للدّيانات قبله لأنّ أقوالنا وأفعالنا شهادةٌ ضدّ الإسلام وليست شهادةً للإسلام . وبذلك نكون نحن المسلمين قد خنّا الأمانة وتخلّينا عن رسالتنا ولم نعمل بقول الله تعالى لنا[2] ﴿ وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيدا ﴾ فلم نكن بأقوالنا وأفعالنا ، ونحن المأمورون بأن نتّخذ من المصطفى ﷺ أسوةً حسنة ، شهداء على النّاس ، بل أصبحنا بمثابة الشّاهد ضدّ نفسه . وبدلاً من أن نقوم بدور الشّهداء على النّاس بحُسن أقوالنا وأفعالنا ، كى تبرأ ذمّتنا أمام الله تعالى ، وكيلا تكون الحجّة علينا بل لنا ، نحن بسوء أقوالنا وأفعالنا بمثابة من كتم شهادة الحقّ وقد قال تعالى[3] : ﴿ ومن أظلم ممّن كتم شهادةً عنده من الله . وما الله بغافلٍ عمّا تعملون ﴾ . لقد كتمنا شهادة الحق ونحن القادرون على الإدلاء بها لأنّنا — باختصار — هجرنا تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين فحقّ علينا

---

(١) صعبة شاقة .
(٢) سورة البقرة ١٤٣ .
(٣) سورة البقرة ١٤٠

ما جاء فى سورة الفرقان[١] : ﴿ وقال الرسول يا ربّ إنّ قومى اتّخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ .

ويستطيع المسلمون أن يبيّنوا المعنى الحقّ للآية الكريمة وكون الإسلام ناسخاً للدّيانات الأخرى كلّها وأنّ الدّين عند الله الإسلام حينما يدلون بشهادة الحقّ بأقوالهم وأعمالهم . والله من وراء القصد .

الآيــة رقــم (٦٣ ، ٦٤)

قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون . ثمّ تولّيتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ .

وإذ أخذنا ميثاقكم : هذا هو الإنعام العاشر[٢] وهذه الآية الكريمة تفسّر معنى قوله تعالى فى سورة الأعراف[٣] : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظُلّةٌ وظنّوا أنّه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ﴾ .

والمعنى : واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم .

الميثاق : توكيد العهد من قولك : أوثقت الشّىء إذا أحكمت شدّه[٤]« قال أبو جعفر : الميثاق المفعال من الوثيقة إمّا بيمين وإمّا بعهد أو غير ذلك من الوثائق . ويعنى بقوله : وإذ أخذنا ميثاقكم الميثاق الّذى أخبر جلّ ثناؤه أنّه أخذ منهم فى قوله : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً ﴾ الآيات الّتى ذكر معها »[٥] وذلك أنّ موسى عليه السّلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتّكاليف الشّاقة فكبرت عليهم وأبوا قبولها فأمر جبريل فقلع الطّور من أصله ورفعه

---

(١) الآية ٣٠ (٢) البحر المحيط ١/٢٤٢

(٣) الآية ١٧١

(٤) الفروق اللّغويّة ص ٤٣ وانظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس « وثق » ٦/٨٥

(٥) تفسير الطّبرىّ ١/٢٥٧ والآيات ٨٣ — ٨٥ من سورة البقرة .

وظلّله فوقهم وقال لهم موسى : إن قبلتم وإلاّ ألْقي عليكم حتّى قبلوا[١] .

الطّور : اسمٌ للجبل الّذى كلّم الله عليه موسى عليه السّلام وأنزل عليه فيه التّوراة دون غيره . رواه ابن جريج عن ابن عباس[٢] .

خذوا ما آتيناكم : هو على إضمار القول : أى وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم [٣] وما موصول ، والعائد عليه محذوف ، أى ما آتيناكموه ، ويعنى به الكتاب ، يدلّ على ذلك قوله : واذكروا ما فيه[٤] .

آتيناكم : أعطيناكم[٥] .

بقوّة : أى بجدّ واجتهاد . قاله ابن عبّاس وقتادة والسّدّى[٦] .

واذكروا ما فيه : الذّكر قد يكون باللّسان ، وقد يكون بالقلب ، وقد يكون بهما . فباللّسان معناه ادرسوا . وبالقلب معناه تدبّروا . وبهما معناه ادرسوا ألفاظه وتدبّروا معانيه . أو أريد بالذّكر ثمرته وهو العمل . فمعناه أعملوا بما فيه من الأحكام والشّرائع[٧] .

ثمّ تولّيتم :الّذى يفهم من سياق الكلام أنّهم امتثلوا الأمر وفعلوا مقتضاه ، يدلّ على ذلك :ثمّ تولّيتم من بعد ذلك . فهذا يدلّ على القبول والالتزام لما أُمِروا به[٨]

والتّولّى : الإعراض بعد الإقبال[٩] وتولّى تفعّل ، وأصله الإعراض والإدبار عن الشّىء بالجسم ، ثمّ استُعْمل فى الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات اتّساعاً ومجازاً[١٠] يقال : قد تولّى فلان عن طاعة فلان ، وتولّى عن مواصلته ، ومنه قول

---

(١) الكشّاف ٢١٩/١ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٣٧٢ وتفسير الطبرىّ ٢٥٧/١

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٧١ وانظر تفسير ابن كثير ١٠٤/١ وتفسير الطبرى ٢٥٧/١ .

(٣) البحر المحيط ٢٤٣/١ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٣٧٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٥٨/١

(٤) البحر المحيط ٢٤٣/١ وانظر تفسير ابن كثير ١٠٥/١

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٢ وتفسير الطّبرىّ ٢٥٨/١

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٥٩/١

(٧) البحر الميحط ٢٤٣/١

(٨) البحر المحيط ٢٤٤/١

(٩) البحر المحيط ٢٤٠/١

(١٠) تفسير القرطبى ص ٣٧٣

الله جلّ ثناؤه :فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون . يعنى بذلك خالفوا ما كانوا وعدوا الله من قولهم : لئن آتانا من فضله لنصّدّقنّ ولنكوننّ من الصّالحين . ونبذوا ذلك وراء ظهورهم(١) .

ثم تولّيتم من بعد ذلك :أى أعرضتم عن الميثاق والعمل بما فيه(٢) .

لولا : حرف امتناعٍ لوجود(٣) .

فضل الله عليكم : الفضل : الزّيادة على ما وجب . والإفضال فعل ما لم يجب(٤)

وفضل مرفوع بالابتداء عند سيبويه . والخبر محذوف لا يجوز إظهاره لأنّ العرب استغنت عن إظهاره . إلاّ أنّهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأن ، فإذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر . والتّقدير فلولا فضل الله تداركم(٥) . والمعنى : فلولا أنّ الله تفضل عليكم بالتّوبة(٦) .

ورحمته : عطف على فضل(٧) والمعنى :« رحمته الّتى رحمكم بها وتجاوز عنكم خطيئتكم الّتى ركبتموها بمراجعتكم طاعة ربّكم »(٨) .

والخسران : النّقصان(٩) « قال أبو جعفر : فلولا فضل الله عليكم ورحمته إيّاكم بإنقاذه إيّاكم بالتّوبة عليكم من خطيئتكم وجرمكم لكنتم الباخسين أنفسكم حظوظها دائماً الهالكين بما اجترمتم من نقض ميثاقكم وخلافكم أمره وطاعته(١٠) »

تخاطب أولى الآيتين الكريمتين بنى إسرائيل مبتدئةً ، على غرار كلّ آيةٍ كريمةٍ تنبّه بنى إسرائيل إلى نعمةٍ من نعمه جلّ وعلا الكثيرة عليهم ، بالقول « وإذ » والمعنى واذكروا إذ أخذنا العهد المؤكّد منكم بعدما أبيتم قبول التّعاليم الّتى تضمّنتها التّوراة الّتى جاء موسى عليه السّلام بألواحها إليكم ، وأعطيتم الموثق من الله تعالى ، وقد رفعنا فوقكم جبل

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٥٩
(٢) البحر المحيط ١/٢٤٤
(٣) البحر المحيط ١/٢٤٠
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٤
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٣
(٦) تفسير الطّبرىّ ١/٢٦٠
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٣
(٨) تفسير الطّبرىّ ١/٢٦٠
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٣
(١٠) تفسير الطّبرىّ ١/١٦٠

الطّور بعد أن زعزعناه من مكانه وغدا فوقكم كأنه ظلّةٌ ، بأن تقبلوا التّوراة وتعملوا بموجبها ، وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بقوّة وتقبّلوا ما آتيناكم من كتابٍ سماويّ، وطبّقوا تعاليمه بجدٍّ واجتهاد ، واذكروا ما فيه بألسنتكم ، وتدبّروا معانيه بقلوبكم ، وترجموا تعاليمه الّتى عرفتموها ومعانيه الّتى أدركتموها إلى عمل لعلّكم بذلك تتّقون عذابى وترتقون فى سلّم الطّاعات حتّى تنتهوا إلى مرحلة التّقوى الّتى تمثّل أعلى درجات سلم العبادات والطّاعات . ويلاحظ اشتمال الآية الكريمة على نعمة نتق الجبل فوقهم كأنّه ظلّة وعدم إسقاطه عليهم بل إعادته إلى موضعه ، رغم يقينهم أنّ الجبل ساقطٌ عليهم لا محالة . ويا له من جبل عظيم رفعته القدرة الإلٰهية وأعادته إلى موضعه . إنّه جبل الطّور كما هو معروف . وقد أشارت إلى ذلك هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف(١) قال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظُلّةٌ وظنّوا أنّه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ﴾ .

وتبدأ الآية الكريمة الثّانية بحرف العطف « ثمّ » الّذى يدلّ على التّرتيب مع التراخى . وإذا كنّا نفهم من الآية الكريمة الأولى أنّ بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السّلام قد أعطوا العهد المؤكد بقبول التّوراة والعمل بمقتضاها ، فإنّ ابتداء الآية الكريمة الثّانية بحرف العطف « ثمّ » يفهم منه أنّ القوم سرْعان ما أعرضوا عن التّوراة بعد إقبالهم عليها . وقد عرفنا أنّ القوم إنّما قبلوا التّوراة تحت وطأة صوارم الأوامر وقوارع الزّواجر . ومعروفٌ أنّ موسى عليه السّلام قد لحق بالرّفيق الأعلى حينما كان بنو إسرائيل فى التّيه ، ومعروفٌ أنّهم قد دخلوا الأرض المقدّسة بقيادة نبىّ الله تعالى يوشع بن نون عليه السّلام . وهؤلاء الّذين دخلوا الأرض المقدّسة ذرّيّة الّذين جبنوا عن دخول الأرض المقدّسة ومدينة الجبّارين على عهد موسى عليه السّلام . ويصحّ أن نفهم أنّ هذه الذرّيّة ظلّت فى مجموعها متمسّكةً بتعاليم التّوراة ، وفى ضوء الآية الكريمة نستطيع أن نفهم أنّهم سرعان ما أعرضوا عن تطبيق تعاليم التّوراة . وتتدارك القومَ رحمةُ الله تعالى كلّما أعرضوا عن

---

(١) الآية ١٧١

تعاليم السّماء الممّثلة فى التّوراة ، فتنبههم إلى التّوبة إلى الله تعالى فيتوبون ، وذلك هو فضل الله تعالى على القوم . ويقبل الله تعالى توبتهم فيرفع عنهم غضبه وسخطه ، وقبول الله تعالى توبة القوم هو رحمته جلّ وعلا بهم . ويظلّ حال القوم بين مدّ وجزر ، إقبال على الله تعالى وإدبار عنه جلّ وعلا ، فضلٌ ورحمة وعذابٌ وغضب . هكذا دواليك . لا يكاد القوم يستقرّون على توبة حتّى يتحوّلوا إلى معصية ، ولا يكادون يستمرّون على فضلٍ من الله ورحمة حتّى يرتدّوا إلى لعنةٍ وعذاب . وإنّ انتقام الله تعالى من بنى إسرائيل كلّ مرّة ينحرفون فيها عن الصّراط المستقيم من مظاهر نعم الله تعالى على القوم لأنّها السّبب المباشر فى عودتهم إلى الله تعالى . ولولا ذلك لكان القوم من الخاسرين الّذين بخسوا أنفسهم حظوظها الهالكين . إنّ الآية الكريمة تنبّه بنى إسرائيل على عهد المصطفى ﷺ إلى نعم الله تعالى ، مرشدةً لهم إلى ضرورة اتّباع تعاليم التّوراة . ومن هذه التّعاليم كون محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وهو الّذى يجدون نعته فى التّوراة ، كما يجد النّصارى نعته فى الإنجيل ، فعلى عباد الله تعالى أجمعين أن يؤمنوا به ويتّبعوه وينصروه ﴿ إنّ الدّين عند الله الإسلام ﴾ ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

إنّ بنى إسرائيل حينما لا يطبقون تعاليم التّوراة هم من الخاسرين ، وإنّ النّصارى حينما لا يطبّقون تعاليم الإنجيل هم من الخاسرين كذلك . إنّ كلاً من التّوراة والإنجيل يدعو إلى اتّباع الرّسول النّبىّ الأمّىّ محمّد بن عبد الله ﷺ .

الآيــة رقــم (٦٥ ، ٦٦)

قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الّذين اعتدوا منكم فى السّبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ، فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتّقين ﴾ .

ولقد : اللّام فى لقد هى لام التوكيد ، ويحتمل أن تكون جواباً لقسمٍ محذوف ولكنّه جىء على سبيل التّوكيد ، لأنّ مثل هذه القصّة يمكن أن يبهتوا فى إنكارها وذلك لما نال فى عقبى أولئك المعتدين من مسخهم قردة ، فاحتيج فى ذلك إلى توكيد وأنّهم علموا

ذلك حقيقة [١] .

علمتم : عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أنّ المعرفة متوجّهةٌ إلى ذات المسمّى ، والعلم متوجّه إلى أحوال المسمّى . فإذا قلت : عرفت زيداً فالمراد شخصه . وإذا قلت : علمت زيداً فالمراد به العلم بأحواله من فضلٍ ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعولٍ واحد وهو قول سيبويه . علمتم بمعنى عرفتم . وعلى الثّانى إلى مفعولين[٢] ويقول أبو حيان[٣] : « وعلم هنا كعرف فلذلك تعدّت إلى واحدٍ وظاهر هذا أنّهم علموا أعيان المعتدين » .

وأصل الاعتداء : تجاوز الحدّ فى كلّ شىء[٤] أى الّذين تجاوزوا حدّى وركبوا ما نهيتهم عنه فى يوم السَّبت وعصوا أمرى[٥] من التّجرّد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد . وذلك أنّ الله ابتلاهم فما كان يبقى حوتٌ فى البحر إلاّ أخرج خرطومه يوم السَّبت ، فإذا مضى تفرّقت . جاء فى سورة الأعراف[٦] قوله تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية الّتى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السَّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . ومعنى شرَّعاً رافعةً رءوسها[٧] فحفروا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد ، فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم[٨] وانتهى الأمر بهم إلى أن صادوها علانيةً وباعوها بالأسواق . وقالت طائفةٌ منهم من أهل التّقيّة : ويحكم اتّقوا الله . ونهوهم عمّا كانوا يصنعون . وقالت طائفةٌ أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عمّا صنعوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديدا قالوا معذرةً إلى ربّكم ، لسخطنا أعمالهم ﴿ ولعلّهم يتّقون ﴾[٩] .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٤٥ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٤

(٣) البحر المحيط ١/٢٤٥ (٤) تفسير الطّبرىّ ١/٢٦١

(٥) تفسير الطّبرىّ ١/٢٦٠ (٦) الآية ١٦٣

(٧) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس « شرع » ٣/٢٦٣ وفى تفسير الطّبرىّ ١/٢٦١ :شرّعاً : ظاهرةً على الماء .

(٨) انظر الكشاف ١/٢١٩ وتفسير ابن كثير ١/١٠٥ و ١٠٦ وتفسير الطبرى ١/٢٦٢

(٩) تفسير الطّبرىّ ١/٢٦٢

وتفصيل ذلك فى قوله تعالى من سورة الأعراف[١] : ﴿ واسألهم عن القرية الّتى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السَّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمّةٌ منهم لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون . فلمّا نسوا ما ذُكِّروا به أنجينا الّذين ينهون عن السّوء وأخذنا الّذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون . فلمّا عتَوْا عمّا نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ .

والقرية هى أيلة على بحر القلزم[٢] .

وأصل السَّبت الهدوّ والسّكون فى راحةٍ ودعة . ولذلك قيل للنّائم مسبوت لهدوّه وسكون جسده واستراحته كما قال جلّ ثناؤه : وجعلنا نومكم سباتاً ، أى راحة لأجسادكم . وهو مصدر من قول القائل : سبت فلان يسبِت سَبْتاً[٣] .

فى السَّبت معناه فى يوم السبت[٤] .

كونوا قردة : يرى جمهور العلماء أنّهم مسخوا قردةً فعلاً[٥] وجمهور المفسّرين على أنّ الّذين مسخهم الله لم يأكلوا و لم يشربوا و لم يَنْسُلوا بل ماتوا جميعاً وأنّهم لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام[٦] .

وكان هذا فى زمن داود على نبيّنا وعليه أفضل الصّلاة والسّلام[٧] .

الخسء (بفتح الخاء) الصّغار والطّرد ، والفعل خَسَأَ (بفتح السّين) ويكون لازماً ومتعدّياً . يقال : خَسَأَ الكلب خسوءًا (بضمّ الخاء) ذلّ وبعد . وخسأته طردته وأبعدته خَسْأً (بفتح الخاء وسكون السّين) كرجع رجوعاً ورجعته رجعاً[٨] وقوله :

---

(١) الآيات ١٦٣ ــ ١٦٦

(٢) البحر المحيط ٢٤٦/١ ومعجم البلدان وتفسير الطّبرىّ ٢٦٢/١ وتفسير ابن كثير ١٠٥/١ وبحر القلزم هو البحر الأحمر .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٢٦٤/١ (٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٤

(٥) انظر البحر المحيط ٢٤٦/١

(٦) البحر المحيط ٢٤٦/١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٦١/١ وتفسير ابن كثير ١٠٥/١

(٧) البحر المحيط ٢٤٦/١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٦٣/١

(٨) البحر المحيط ٢٤٠/١

كونوا قردةً خاسئين أى صيروا كذلك . والخاسىء المبعد المطرود كما يخسأ الكلب[١] قردة خاسئين كلاهما خبر كان . والمعنى أنّهم يكونون قد جمعوا بين القردة والخسوء . ويجوز أن يكون خاسئين صفة لقردة . ويجوز أن يكون حالاً من اسم كونوا[٢] .

فجعلناها : فى المجعول نكالاً أقاويل . قيل العقوبة ، وقيل القرية ، إذ معنى الكلام يقتضيها ، وقيل الأمّة الّتى مسخت[٣] . الصّحيح أنّ الضّمير عائدٌ على القرية[٤] .

نكالاً : نصب على المفعول الثّانى[٥] والنّكال : العبرة . وأصله المنع . والنّكل[٦] القيد[٧] أى عاقبناهم عقوبةً فجعلناها عبرةً كما قال الله تعالى عن فرعون : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾[٨] .

لما بين يديها وما خلفها : « روى الحكم عن مجاهد عن ابن عبّاس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم ، واختاره النّحّاس . قال . وهو أشبه بالمعنى والله أعلم . وعن ابن عبّاس أيضاً : لما بين يديها وما خلفها من القرى »[٩] ويقول ابن كثير[١٠] : « قلت : وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حلّ بها كما قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ . الآية . وقال تعالى : ﴿ ولا يزال الّذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ . الآية . وقال تعالى : ﴿ أفلا يرون أنّا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ . فجعلهم عبرةً ونكالاً لمن فى زمانهم وموعظةً لمن يأتى بعدهم بالخبر المتواتر عنهم ، ولهذا قال : ﴿ وموعظة للمتّقين ﴾ » .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٦٤ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٣٧٧

(٢) البحر المحيط ١/٢٤٦

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٧ وانظر البحر المحيط ١/٢٤٦ وتفسير الطّبرىّ ١/٢٦٤

(٤) تفسير ابن كثير ١/١٠٧ (٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٧

(٦) النّكل بكسر النّون القيد الشّديد من أىّ شىء كان .

(٧) البحر المحيط ١/٢٤٠

(٨) تفسير ابن كثير ١/١٠٧ وانظر الكشّاف ١/٢١٩

(٩) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٨ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٦٥

(١٠) تفسير ابن كثير ١/١٠٧

والموعظة مصدر[١] ووزنها مفعِلة من الاتّعاظ والانزجار .

والوعظ : التّخويف . والعظة الاسم . قال الخليل : الوعظ التّذكير بالخير ممّا يرقّ له القلب[٢] ..

من مظاهر إعراض بنى إسرائيل عن الحقّ بعد إقبالهم عليه وبعد إيتاء العهد المؤكد بأن يأخذوا التّوراة بجدٍّ واجتهاد وأن يعملوا بتعاليمها ما قامت به القرية الّتى كانت حاضرة البحر الأحمر على عهد داود عليه السّلام حينما لم تمتثل التّعاليم بأن تقصر العمل فى يوم السَّبت على عبادة الله تعالى وألاّ تقوم بأى عمل آخر دنيوىّ . إنّ أهل قرية أيلة قد اعتدى بعضهم على محارم الله تعالى وتجاوزوا الحدّ الّذى وضعه جلّ وعلا لهم ، وذلك بالتّحايل على السّمك أوّل الأمر بعمل حفائر لاستدراج السّمك إليها يوم السَّبت ولمساعدة الموج على قذف السّمك إلى تلك الحفائر ، فلا يستطيع السّمك بسبب انحسار الموج والمدّ وقلّة الماء أن يعود إلى البحر ثانية . إنّ القوم لم يفطنوا إلى ابتلاء الله تعالى لهم وهم الّذين بيّتوا الاعتداء على حدود الله تعالى باصطياد السّمك يوم السَّبت إلى كون ظهور السّمك ومدّ رأسه فوق الماء إنما هو امتحانٌ من الله تعالى واختبار لمعرفة مدى امتثالهم أوامره جلّ وعلا واجتنابهم نواهيه . إنّهم بدلاً من أن يصطادوا السّمك فى غير يوم السّبت وهو أمرٌ طبيعىٌّ ومألوف ، إذ يتصرّف السّمك فى غير يوم السَّبت بإرادة الله تعالى تصرّفاً عادياً فلا تأتى الحيتان شرّعاً يوم لا يسبتون ، هم يتحايلون لاصطياد السّمك بعمل الحفائر وشقّ الخلجان يوم السَّبت كى يصطادوه بالفعل فى اليوم التّالى أو الأيام التّالية .

لقد استمرأ القوم العصيان ، وتمادوا فى غيّهم ، وفهموا إمهال الله تعالى لهم إهمالاً ، وبدلاً من أن يرعووا إلى جادّة الصّواب هم تمادوا فى غيّهم رغم النّهى الصّريح لهم من الصّالحين من أقوامهم ، فبعد أن كانوا يتحايلون فى يوم السَّبت لحبس السّمك بقصد اصطياده بعد يوم السَّبت ، هم صادوا السّمك صراحةً يوم السَّبت ، بل هم باعوه فى الأسواق فى ذلك اليوم .

---

(١) تفسير الطّبرى ١/٢٦٦

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٨

وقد انقسم سكّان تلك القرية تجاه عصيان هذا الفريق قسمين . قسمٌ وعظوا القوم ونهوهم عن عصيانهم نهياً صريحاً . وقسمٌ أنكروا العصيان بقلوبهم وقالوا للقسم الأوّل كما جاء فى سورة الأعراف[1] : ﴿ لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً ﴾ وكان فعلاً عذاب الله تعالى الشّديد للقوم وإهلاكهم ، فقد مسخ الله تعالى العاصين قردةً خاسئين دليلاً على شديد غضب الله تعالى عليهم . وإنّ أولى الآيتين الكريمتين تخاطب بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ بكونهم على علمٍ أكيدٍ بمسخ الله تعالى العاصين قردة . إنّهم وهم ذرارى النّاجين قد علموا بمصير العاصين السّيّىء ، تماماً كما علمه المعاصرون من سكّان القرية ، ويستوى فى ذلك المنكرون بألسنتهم وبقلوبهم . إنّهم جميعاً على علمٍ بمسخ الله تعالى المعتدين فى السّبت من أهل قرية أيلة قروداً ذليلة صاغرةً خاسئة ، لم تأكل و لم تشرب و لم تَنْسُل ، بل هلكت بعد ثلاثة أيّام . ويتكرّر خطاب المعاصرين للمصطفى ﷺ فى موضعين من الآية الكريمة ﴿ ولقد علمتم ﴾ واللاّم تفيد التّوكيد و « منكم » فالمعتدون فى السّبت طائفةٌ من سكّان القرية ، والنّاجون على علمٍ أكيد بمصير المعتدين ، ولولا نجاة غير المعتدين لما نجت ذراريهم ضمناً ، ومنهم المعاصرون للمصطفى ﷺ . فنعمة الإنجاء شاملةٌ للذّرارى شمولها للآباء ، وكذلك العلم يستوى فيه النّاجون وذراريهم .

وتبينّ الآية الكريمة التّالية أنّ الله سبحانه وتعالى جعل تلك القرية الّتى كانت حاضرة البحر ، والمراد أهلها الّذين اعتدوا فى السّبت ، عقوبةً رادعةً ومانعةً للقرى المعاصرة واللاّحقة عن معصية الله تعالى وتجاوز حدوده جلّ وعلا ، كما جعل الله تعالى ذلك النّكال للعاصين موعظةً للمتّقين ، وفى مقدّمة هؤلاء أمّة محمّد ﷺ الّذى أوحى الله تعالى إليه بالكتاب العزيز المتضمّن الكثير من أنباء المرسلين السّابقين وأممهم ، ومن ذلك اعتداء أهل القرية الّتى كانت حاضرة البحر بالصّيد يوم السّبت وانتقام الله تعالى منهم . إنّ فى العلم بعاقبة المعتدين الوخيمة موعظة للمتّقين وإنّ فى قصّ القرآن نبأ أهل القرية واعتدائهم

---

(١) الآية ١٦٤

وذكر مصيرهم ترقيقاً لقلوب المتّقين ، وصرفاً دائماً لهم إلى طاعة الله تعالى ، وتوجيهاً لهممهم إلى مرضاته جلّ وعلا . وقد سجّلت آيات سورة الأعراف[1] تفصيل الاعتداء فى السَّبت وانقسام أهل القرى ثلاث فرق . قال تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية الّتى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السَّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمّةٌ منهم لِمَ تَعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون . فلمّا نسُوا ما ذكّروا به أنجينا الّذين يَنهَوْن عن السّوء وأخذنا الّذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون . فلما عَتوْا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾.

الآيــة رقــم (٦٧)

قال تعالى : ﴿ وإذا قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتّخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ .

هذه الآية الكريمة أولى آياتٍ خمسٍ تتحدثٍ عن قصّة بنى إسرائيل مع البقرة الّتى أمر موسى عليه السّلام قومه بذبحها ، والّتى سمّيت السّورة الكريمة بها . ثمّ تأتى بعد ذلك آيتان كريمتان تتحدّثان عن القتيل الّذى أحياه الله تعالى بأن ضُرِب ببعض هذه البقرة الّتى ذبحها بنو إسرائيل بعد العديد من الأسئلة . والّذى يلفت الانتباه حقّاً هو أنّ أولى الآيات الخمس الّتى تتحدّث عن البقرة تبدأ على غرار كلّ آية تشير إلى نعمةٍ من النّعم بالقول « وإذ » والّذى يلفت الانتباه كذلك هو أنّ أولى الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن القتل تبدأ هى الأخرى بالقول « وإذ » ممّا يُفْهم معه أن ثمّة معنًى مستأنفاً .

وتبيّن وراء ذلك من سياق الآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن نعم الله تعالى على بنى إسرائيل أنّها كلّها ترتّب النّعم ترتيباً موافقا لترتيب زمنها . وإذا كان ثمّة تجاوزٌ لهذا التّرتيب الزّمنى فلا يكون إلاّ مع مراعاة شرطين اثنين . الشّرط الأوّل هو القرينة

---

(١) الآيات ١٦٣ ــ ١٦٦

المعنويّة فلا يكون التّحوّل إلاّ إلى موضوعٍ ذى علاقةٍ وثيقةٍ بمحور النّعمة وذلك على غرار الحديث عن تبديل الّذين ظلموا قولاً غير الّذى قيل لهم حينما يدخلون باب مدينة الجبّارين سجّداً . ومع أنّ الأمر بالدّخول كان على عهد موسى عليه السّلام فإنّه لم يتمّ إلاّ فى عهد يوشع بن نون خليفة موسى عليهما السّلام وبقيادته . ولا يخفى العلاقة المتينة المعنويّة بين المناسبتين . وكذلك على غرار الحديث عن الّذين اعتدوا فى السّبت الّذى كان متأخّراً على عهد داود عليه السّلام ــ فيما يقال ــ ومعروفٌ أنّ أخذ الميثاق بتطبيق تعاليم التّوراة إنّما كان على عهد موسى عليه السّلام . وليس الاعتداء فى يوم السّبت بالصيّد وعدم التّفرّغ لعبادة الله تعالى إلاّ امتداداً لإعراضهم عن تعاليم التّوراة .

والشّرط الآخر هو أنّ التّجاوز للتّرتيب الزّمنى بسبب القرينة أو القرائن الّتى تشكّل الشّرط الأوّل لا يكون إلا امتداداً للنّعمة الّتى تبدأ بالقول « وإذ » والّتى اعتاد كفرانها القوم .

وبتأملنا لحديث الآيات الكريمات السّبع عن البقرة وعن القتيل يتبيّن أنّ الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن القتيل تبدأ أولاهما ، على غرار أولى الآيات الخمس الّتى تتحدّث عن البقرة بالقول « وإذ » وفى ضوء ترتيب الآيات الكريمات الحديث عن النّعم ترتيباً زمنيّاً نحن نميل بقوّة إلى أنّه ليس ثمّة تقديمٌ وتأخير فى ترتيب الحدثين ، وأنّ الأمر بذبح البقرة قد تمّ أوّلاً ، وأنّ الأمر بضرب القتيل ببعض البقرة قد تمّ آخراً . وليس من الضّرورىّ الذّهاب إلى القول بأنّ موسى عليه السّلام قد أمر قومه بذبح البقرة إثر طلب أهل القتيل منه عليه الصّلاة والسّلام أن يدعو ربّه جلّ وعلا بأن يبيّن لهم القاتل . وبالتّالى نحن نميل بقوّة إلى مثل هذا القول للقرطبى[1] : « ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتّى ذبحوها ثمّ وقع ما وقع من أمر القتل فأمروا أن يضربوه ببعضها » ولا نميل إلى مثل هذا القول للقرطبىّ أيضاً[2] « قوله تعالى :

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٨ وانظر فى سبب النّزول ص ٣٨٠ والكشاف ٢٢٠/١ والبحر المحيط ٢٤٩/١ وتفسير ابن كثير ١٠٨/١ وتفسير الطبرى ٢٦٧/١

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٨

﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ ، مقدم فى التّلاوة وقوله : ﴿ قتلتم نفساً ﴾ مقدّمٌ فى المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : قتلتم فى النّزول مقدّماً والأمر بالذّبح مؤخّرا ..... ويكون : وإذ قتلتم مقدّماً فى المعنى على القول الأوّل حسب ما ذكرنا لأنّ الواو لا توجب التّرتيب . ونظيره فى التّنزيل فى قصّة نوحٍ بعد الطّوفان وانقضائه فى قوله : ﴿ حتىّ إذا جاء أمرنا وفار التّنور قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين ﴾ إلى قوله : ﴿ إلاّ قليل ﴾ . فذكر إهلاك من هلك منهم ثمّ عطف عليه بقوله : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ﴾ . فذكر الرّكوب متأخّراً فى الخطاب ، ومعلومٌ أنّ ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً قيّما ﴾ . وتقديره : أنزل على عبده الكتاب قيمّاً و لم يجعل له عوجاً . ومثله فى القرآن كثير » ونحن لا نرى رأى القرطبىّ بشأن المثلين المذكورين ونرى أنّ القرائن المعنويّة هى الّتى أوجدت هذا التّرتيب وألزمت ذلك التّحوّل من جانبٍ من المعنى إلى جانبٍ آخر منه . فبالنّظر إلى حديث سورة هود يتبيّن أنّ حديث الآية الكريمة الأربعين المشار إليها كان عن إنجاء المؤمنين أوّلاً وعن هلاك الّذين سبق عليهم القول بدخول جهنّم تبعاً وضمناً . وبالنّظر إلى حديث سورة الكهف عن القرآن الكريم يتبيّن أنّ السّياق القرآنىّ نفى عن القرآن الكريم العوج أوّلاً . وبعد نفى العوج أثبت له الاستقامة المطلقة ثانياً . ومثل هذا التّرتيب طبيعىّ .

فإذا تحوّلنا إلى آيات سورة البقرة تبيّن أنّ كلاًّ من المعنيين يصحّ أن يكون مستقلاًّ بذاته رغم علاقة الثّانى الوثيقة بالأوّل . ولا ننسى وراء ذلك أنّ ضرب القتيل إنّما تمّ ببعض البقرة الّتى تمّ ذبحها فعلاً . فالذّبح يجب أن يكون أوّلاً . وعليه ليس من الضّرورىّ أن نذهب إلى كون الآيات المتقدّمة تلاوةً متأخّرةً معنى . فليس من الضّرورىّ أن يكون طلب الذّبح قد تمّ بسبب القتل . بل إنّا نميل إلى كون موسى عليه السّلام قد أمر قومه بايحاءٍ من الله تعالى أن يذبحوا بقرة لأنّها من جنس العجل الّذى عبدوه . أليس العجل ولد البقرة الذّكر ؟ بلى . إذن فليتّضح للقوم مدى الخطأ الجسيم الّذى ارتكبوه فى جنب الله تعالى وفى حقّ أنفسهم حينما صرفوا العبادة عن الله تعالى الخالق البارئ المصوّر المستحقّ

لها إلى ذلك المخلوق الّذى يضرب به المثل فى البلادة والغباء . وتعميقاً لإحساس القوم العميق بخطئهم الشّنيع فليتبيّن لهم مظهرٌ من مظاهر قدرة الله تعالى الخالق البارئ المصور الواحد الأحد القهّار بأن يحيى القتيل بإرادة الله تعالى بواسطة ضربه ببعض تلك البقرة ، وهى من جنس العجل ، تلك البقرة الّتى ذبحت بأمر الله تعالى ذبحاً . وليس وراء الذّبح وراء فى الدّليل على الضّعف والعجز وقلّة الحيلة . « قال الماوردىّ : وإنّما أمِروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها لأنّها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته »[١] ويقول أبو حيّان[٢] : « وإنما اختصّ البقر من سائر الحيوانات لأنّهم كانوا يعظّمون البقر ويعبدونها من دون الله فاختبروا بذلك ؛ إذ هذا من الابتلاء العظيم وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبّه ويعظّمه » .

أن تذبحوا بقرة : لا خلاف بين العلماء أنّ الذّبح أولى فى الغنم والنّحر أولى فى الإبل والتخيير فى البقر[٣] والبقرة اسمٌ للأنثى والثّور اسمٌ للذّكر مثل ناقةٍ وجمل وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ، الأنثى والذّكر سواء . وأصله من قولك : بقر بطنه ، أى شقّه . فالبقرة تشقّ الأرض بالحرث وتثيره ، ومنه الباقر لأبى جعفر محمّد بن علىّ زين العابدين ، لأنّه بقر العلم وعرف أصله أى شقّه . والبقيرة : ثوبٌ يشقّ فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كمّين . وفى حديث ابن عباس فى شأن الهدهد : فبقر الأرض[٤] .

الهزؤ : اللّعب والسّخرية[٥] وهزوًا مفعولٌ ثانٍ لقوله : أتتّخذنا هزوًا. فإمّا أن يريد به اسم المفعول أى مهزوءاً كقوله : درهم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله . أو يكون أخبروا به على سبيل المبالغة ، أى أتتّخذنا نفس الهزؤ ، وذلك لكثرة الاستهزاء ممّن يكون جاهلاً . أو على حذف مضاف . أى مكان هزء أو ذوى هزء[٦] .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٧٩ (٢) البحر المحيط ١/٢٥٠

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٩ (٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٧٩

(٥) تفسير الطّبرىّ ١/٣٦٧ وتفسير القرطبىّ ص ٣٨٠ .

(٦) البحر المحيط ١/٢٥٠

والعياذ والمعاذ الاعتصام . الفعل منه عاذ يعوذ [١] .

والجاهلون : السّفهاء[٢] وقد أجابهم موسى عليه السّلام بقوله : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . لأنّ الخروج عن جواب السّائل المسترشد إلى الهزؤ جهل[٣] .

بهذه الآية الكريمة تبدأ قصّة البقرة فى هذه السّورة الكريمة الّتى سمّيت بها . ويلاحظ أنّ لفظ بقرة يجىء فى الآيات الخمس خمس مرّات ، أربع مرّات بلفظ « بقرة » ومرّةً واحدة بلفظ « البقر » . ويبدو أنّ من أهمّ أسباب تكرار ذكر لفظ بقرة على لسان موسى عليه السّلام مرّاتٍ أربعاً ، وإعادة ذكر لفظ بقرة بصريح اللّفظ كلّ مرّة يسألون فيها موسى عليه السّلام ويلحفون فى السّؤال ، من أهمّ أسباب ذلك بلادة أذهان السّائلين وقصور إدراكهم وكأنّ للقوم نصيباً ممّا اشتهر به جنس البقر من البلادة والبلاهة . ويعجب المرء ، بل لا ينقضى عجبه من وجود أناسٍ خلال العصور قد أشربت قلوبهم حبّ البقر والعجول ، فليس الأمر مقصوراً على بنى إسرائيل الّذين عبدوا العجل .

والآية الكريمة تبدأ على غرار كلّ آية فى القسم تنبّه إلى نعمةٍ أنعم الله تعالى بها على القوم بالقول « وإذ » والمعنى : واذكروا إذ قال موسى لقومه . ويلاحظ أنّ السّياق لا يخاطب المعاصرين للمصطفى ﷺ كما كان من ذى قبل ، ولكنّه يسرد قصّة موسى عليه السّلام مع قومه حينما أمرهم بإيحاءٍ من الله تعالى بأن يذبحوا بقرة . إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ موسى عليه السّلام قد قال لقومه الّذين يعلمون حقّ اليقين أنّه رسول الله تعالى إليهم : إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . ويصحّ أن يكون هذا الأمر من الله تعالى لأنّ البقر من جنس العجل الّذى عبدوه من دون الله تعالى ، وفى ذبح البقرة تأكيدٌ عمليّ من القوم لتوبتهم إلى الله تعالى النّصوح من عبادة العجل . وهذا هو الّذى نعتقد . ويصحّ أن يكون الأمر بذبح البقرة بقصد أن يضرب القتيل ببعضها كى يحيى بإرادة الله تعالى ويذكر اسم قاتله ، على نحو ما قيل فى أسباب النّزول . فما المفروض فى بنى إسرائيل أن يفعلوا وقد أمرهم رسول الله تعالى ، بل وقد أمرهم الله تعالى على لسان رسوله أن يذبحوا بقرة ؟ المفروض

---

(١) البحر المحيط ١/٢٤٨

(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٢٦٧

(٣) تفسير القرطبى ص ٣٨٠

أن يبادروا إلى ذبح بقرة أيّ بقرة . ولكنّ السّياق قد ذكر قبل ذلك الكثير من تعنّت بنى إسرائيل وعنادهم وعصيانهم . وقد كان موقف قوم موسى منه عليه الصّلاة والسّلام امتداداً لمواقفهم السّابقة . وكان جوابهم الفوريّ لموسى عليه السّلام ليس سوى الدّليل الأكيد على سوء خلق القوم ، وضيق عطنهم ، وتعنّتهم ، وسوء ظنّهم برسول الله تعالى إليهم : ﴿ قالوا أتتّخذنا هزوا ﴾ ؟ وهل يتصوّر الهزو والسُّخرية واللّعب والعبث من أىّ عبد صالحٍ مخلصٍ فى الدّعوة إلى الله تعالى ؟ لا يتصوّر شيءٌ من ذلك مطلقاً فكيف يتصوّر إمكان صدوره من رسولٍ هو أكبر رسل الله تعالى إلى بنى إسرائيل وهو أحد أولى العزم من الرّسل الخمسة ؟ ويا لها من جراءة اتسم بها القوم بل يا لها من وقاحة . إنّ مجرّد مثل هذا الظّنّ لا يصحّ وروده على النّفس ولا مروره على البال فكيف بالتّعبير المباشر الصّريح عنه فى هذه الطّريقة غير المهذبة ولا المؤدّبة .

ويفرّ موسى عليه السّلام إلى بارئه جلّ وعلا ويستعيذ به تعالى ويعتصم ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ إنّ موسى عليه السّلام يعتصم بالله تعالى ويلجأ إليه جلّ وعلا ويستعيذ به من أن يكون من الجاهلين السّفهاء الحمقى الّذين يُعْتَبَرُ قومه الّذين يخاطبونه عليه الصّلاة والسّلام فى تلك الطّريقة الّتى تدلّ على قمّة السّفه والحمق عماد الجاهلين فى الوجود السّفهاء والحمقى . إنّ موسى عليه السّلام فى تعريضه بقومه كأنه يستعيذ بالله تعالى من الجهل والسّفه والطّيش والنّزق والخفّة والحمق ، عماد صفات قومه الّذين استحقّوا لصفاتهم السّيّئة أن يضرب الله تعالى عليهم أن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة لحق فى أثنائها موسى عليه السّلام بالرّفيق الأعلى . « روى الحسن مرفوعاً أنّ رسول الله ﷺ قال : والّذى نفس محمّد بيده لو اعترضوا بقرةً فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم » [1] « قال محمّد بن جرير .... عن ابن عبّاس فى قوله فى شأن البقرة : وذلك أن شيخاً من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السّلام كان مكثراً من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم ، وكان الشّيخ لا ولد له وكان بنو أخيه ورثته فقالوا :

---

(١) البحر المحيط ١/٢٥٠ وانظر تفسير ابن كثير ١/١٠٨ وتفسير الطّبرىّ ١/٢٦٧ ، ٢٦٨ . وتفسير القرطبىّ ص ٣٨١

ليت عمّنا قد مات فورثنا ماله . وإنّه لمّاتطاول عليهم أن لا يموت عمّهم أتاهم الشّيطان فقال لهم : هل لكم إلى أن تقتلوا عمّكم فترثوا ماله وتغرّموا أهل المدينة الّتى لستم بها ديته وذلك أنّهما كانتا مدينتين كانوا فى إحداهما وكان القتيل إذا قتل وطرح بين المدينتين قيس ما بين القتيل والقريتين فأيّتهما كانت أقرب إليه غرمت الدّية ، وأنّهم لمّا سوّل لهم الشّيطان ذلك وتطاول عليهم أن لا يموت عمّهم عمدوا إليه فقتلوه ثمّ عمدوا فطرحوه على باب المدينة الّتى ليسوا فيها . فلمّا أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشّيخ فقالوا عمّنا قتل على باب مدينتكم فوالله لتغرمنّ لنا دية عمّنا . قال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتّى أصبحنا ، وأنّهم عمدوا إلى موسى عليه السّلام فلمّا أتوه قال بنو أخى الشّيخ : عمنا وجدناه مقتولاً على باب مدينتهم . وقال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتّى أصبحنا وأنّ جبريل جاء بأمر السّميع العليم إلى موسى عليه السّلام فقال قل لهم : ﴿ إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، فتضربوه ببعضها ﴾ (١) .

الآيــة رقــم (٦٨)

قال تعالى : ﴿ قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هى ، قال إنّه يقول إنّها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكرٌ عوانٌ بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾ .

ما هى : ابتداءٌ وخبر . وما هيّة الشّىء حقيقته وذاته الّتى هو عليها(٢) ولم يريدوا تبيين ما هيّة البقرة وإنّما هو سؤالٌ عن الوصف ، فيكون على حذف مضاف التقدير : ما صفتها ، ولذلك أجيبوا بالوصف وهو قوله : ﴿ لا فارضٌ ولا بكر .... ﴾ وفى الكلام حذفٌ تقديره : فدعا موسى ربه فأجابه : ﴿ قال إنّه يقول إنّها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكر ﴾ (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٠٨ (٢) تفسير القرطبى ص ٣٨١

(٣) البحر المحيط ١/٢٥١